الباب الأول
الواقع العربى الراهن

١- من المسئول، الخارج أم الداخل؟
٢- الإهانة والتحدى.
٣- الاتجاه المعاكس أم الاتجاه المغاير؟
٤- القهر الاجتماعى.
٥- التناقضات الهدامة.
٦- غياب الوعى التاريخى.
٧- وطن بلا صاحب.
٨- ممنوع من الدخول.
٩- بيع نفس عربية.
١٠- السلاح أم الحوار؟
١١- الأقوال والأفعال.
١٢- العصا.
١٣- من يريد الديموقراطية؟
١٤- الصحة والمرض.
١٥- السلطة الرابعة.
١٦- حدود سلطة الرؤساء.
١٧- حدود الإيديولوجيات وقوة الفقراء.
١٨- المفاتيح السحرية.

obeikandl.com

obeikandl.com

١- من المسئول، الخارج أم الداخل؟

تتوالى الأحداث، وتشتد الأزمات، وتقع الإهانات فى الوطن العربى يوما وراء يوم. ويعلو الصراخ، وتُحرر المقالات عن قوى الهيمنة الجديدة، والعالم ذى القطب الواحد، وإمبراطورية الولايات المتحدة الأمريكية، والعولمة، والسوق، والحداثة، والقوة، وثورة الاتصالات. وكلها عوامل خارجية، شماعة لتعليق الأزمات والكروب والبلايا الداخلية عليها. ولما كان من الصعب تغيير العوامل الخارجية إلا على الأمد الطويل، ينتهى الأمر بقبول الأوضاع الحالية واعتبارها قدرا لا مفر منه. ولا حل إلا الانتظار حتى تتغير الظروف الدولية، وتتبدل موازين القوى العالمية. ويتم الاستسلام للضغوط الخارجية فتصبح نظم الحكم تابعة للخارج. تتحالف معه كى تضمن سلامتها، وتأمن من العدوان عليها. ومصير العراق وأفغانستان وفلسطين والصومال ماثل للعيان. ومشهد تعليق الرئيس العراقى السابق من حبل المشنقة محفور فى الذاكرة لعدة أجيال وعند رؤساء الدول.

ولا حل فى العاجل إلا الدفاع عن النظم السياسية حماية للأوضاع الداخلية، والحفاظ على الاستقرار السياسى حتى لا يهرب الاستثمار الخارجى، والاعتماد على أجهزة الأمن والشرطة حماية للأمن الداخلى، واستمرار العمل بقانون الطوارئ حماية للجبهة الداخلية، واعتقال مثيرى الشغب وقادة المظاهرات والاضطرابات والاتحادات وتجديد اعتقالهم إذا ما أفرجت عنهم النيابة العامة، وتقديمهم إلى

(*) جريدة الاتحاد الإماراتية: ٢٤ فبراير ٢٠٠٧، جريدة الدستور الأردنية: ٢٦ فبراير ٢٠٠٧، جريدة الزمان العراقية: ٣ مارس ٢٠٠٧، جريدة العربى الناصرى: ٤ مارس ٢٠٠٧.

محاكم عسكرية لسرعة الفصل فيها، والحكم بإطالة مدة الحبس، وتحويل الاعتقال المؤقت لبضعة شهور إلى حبس دائم لعدة سنوات لإطالة عمر النظم السياسية، وترحيل المشاكل إلى فيما بعد حتى نهاية الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وتستمر التبعية للخارج عن طريق التحالف معه، وقبول القواعد العسكرية، والدخول فى حروبه، ومؤازرة عدوانه، وتبريره بإيجاد الشرعية له. ويستمر القهر فى الداخل، والفساد فى الحكم، ونهب ثروات البلاد، وبيع أصولها. فالخارج مطمئن إلى تبعية النظم له. والداخل مغلوب على أمره، يجرى وراء لقمة العيش. والمعارضة إما ضعيفة نخبوية لا تستطيع تحريك الشارع أو قوية ولكنها محظورة أو اضطرابات عمالية مهنية يستجاب لها حتى لا تتحول من من مطالب فئوية مثل الأرباح إلى مطالب سياسية تهدد نظم الحكم. وينتهى الأمر كله إلى الاستكانة وقبول الأمر الواقع لاستحالة البديل طالما أن قلب السلطان مازال ينبض بالحياة له ومن بعده **﴿قال إنى جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتى، قال لا ينال عهدى الظالمين﴾**.

والخارج لا يعتدى إلا بعد أن يكتشف المناطق القابلة للعدوان. لا يستعمر إلا إذا كان المستعمَر قابلا للاستعمار. وكما يتم التنقيب عن النفط بالحفارات الأولى، وكما توجد المجسات على طبيعة التربة قبل حفرها والبناء عليها كذلك توجد المجسات لدى قوة الهيمنة لمعرفة مدى قابلية الشعوب المستهدفة لتحقيق الأطماع، وهل هى مصمتة أم مفرغة، صلبة أم رخوة؟ لذلك يكثر جمع المعلومات عنها ومعرفة ما لا يعرفه أهلها. ويعتمد على باحثين أوروبيين معروفين بدقة التحليل وجمع الإحصاءات، وعلى باحثين وطنيين لديهم رؤى حدسية بناء على التجارب المعاشة. فالحدود مفتوحة للباحثين الأجانب يجمعون ما يشاءون. ومراكز التصنت والاستخبارات وجمع المعلومات متطورة للغاية من خلال وسائل الاتصالات الحديثة.

والأمثلة على ذلك كثيرة. فلا يتم العدوان على شعب من الخارج إلا إذا وجد شرعية له فى الداخل مثل قهر الحاكم. وتكون الذريعة تخليص الشعب من التسلط والطغيان، وإرساء قواعد الديموقراطية. وهكذا تم غزو العراق وأفغانستان وأخيرا الصومال. ويتم تهديد سوريا والسودان وإيران. ويعلم العدو أن الشعب المعتدى عليه يريد الخلاص من حاكمه القاهر. ويزيد بعض النخبة: حتى ولو كان بيد أجنبى وعلى أسنة الرماح. بينما يفضل المناضلون الوطنيون "بيدى لا بيد عمرو".

وتتعامل قوى الهيمنة مع نظم الحكم التابعة، وجرها إلى أحلاف الدول المعتدلة فى مواجهة الدول المتطرفة. وتنسق أجهزة المخابرات أعمالها للطرفين. بل وتسمح بقواعد عسكرية على أراضيها بدعوى حمايتها من العدوان الخارجى من دول الجوار. وهى تعلم أن نظام الحكم هو شخص الحاكم. فهو الذى يقرر الحرب والسلام فى غياب المؤسسات المستقلة والرأى العام القوى باستثناء فلسطين ولبنان حيث تفرض المقاومة الشعبية سياستها على أنظمة الحكم. فالسلطان بؤرة الدولة وعمادها الأول. وهو صاحب القرار فى الحرب والسلم. والمؤسسات التنفيذية والتشريعية تابعة له. والحزب الحاكم له السيطرة على مظاهر الحياة السياسية فى البلاد. لم يستعد المثقفون الوطنيون فى الداخل لإبراز ثقافة المعارضة، ومواجهة السلطان الجائر، واعتبار الشعب مصدر السلطة، وضرورة الاستشارة. فلا خاب من استشار فتحسب قوى الهيمنة حسابها على أن هناك طرفا آخر فى المعادلة غير رأس النظام وهو الشعب، ثقافته وتاريخه وكرامته واستقلاله.

والآن يواجه الوطن العربى خطر التجزئة والتفتيت والتحول إلى فسيفساء عرقى طائفى، دويلات سنية وشيعية وكردية وعربية وبربرية وزنجية وإسلامية وقبطية ونجدية وحجازية حتى تصبح إسرائيل أقوى دولة طائفية عرقية. وتجد شرعية جديدة لوجودها من طبيعة الجغرافيا السياسية للمنطقة بدلا من أساطير

المعاد الأولى التى شرع بها هرتزل وجودها فى أواخر القرن التاسع عشر. وتقع المسئولية على الداخل على الثقافة العربية التى تركت مجتمعاتها عرضة للتمزق والتفتيت. ورثت نظام الملة العثمانى، وتحويل الأمة إلى ملل وأعراق، ومذاهب وطوائف، سنة وشيعة، زيدية وشوافع، عرب وأكراد، مسلمين وأقباط، عرب وبربر، أرمن وموارنة، تركمان ودروز كل طائفة تجد هويتها فى عرقها أو مذهبها. فغاب مفهوم المواطنة ومفهوم المواطن، والهوية الواحدة للوطن الواحد. وتركت مصطلحات الفقه القديم دون تغيير، أهل الكتاب، وأهل الذمة، والعادات الاجتماعية، نجدى وحجازى، صعيدى وبحراوى، بدوى وحضرى، سود وبيض. ولم تنفع الأيديولوجيات العلمانية للتحديث كالليبرالية والقومية والماركسية والإسلامية المحافظة فى تحقيق الهويات الوطنية فى العمق. ومازال فقه المواطنة فى البداية تحمله نخبة مستنيرة من المفكرين الإسلاميين والأقباط. فكان من السهل رسم استراتيجية جديدة للمنطقة بأسمائها المختلفة، الشرق الأوسط الجديد أو الكبير، والدخول إلى قلب المنطقة لتفتيتها بداية بالعراق ثم السودان ثم الصومال لأن الأرض تسمح بذلك.

وتركت الثقافة الموروثة تئن تحت عبء الفرقة الناجية، وهى فرقة الحكومة، والفرق الهالكة وهى فرق المعارضة، وأن الحق مع طرف واحد. فغابت التعددية السياسية. وعز الحوار الوطنى. ووقع فرقاء الوطن الواحد فى خصومات سياسية، موالاة ومعارضة، حكومة وشعب، كفار ومؤمنين، أبطال وخونة. فريق يكفر فريقا، وفريق يخوّن فريقا. يظل الحزب الحاكم فى السلطة دون تداولها. ويبقى الرئيس مدى الحياة. ولا يترك الرئاسة إلا بموت طبيعى أو اغتيال سياسى أو انقلاب عسكرى. وعرفت قوى الهيمنة ذلك بعد أن جست الأرضية التى تعمل فيها. وأيدت فريقا دون فريق، الموالاة ضد المعارضة، والأقباط دون المسلمين، والحكومة ضد

الشعب، والمؤمنين ضد الكفار أو الكفار ضد المؤمنين طبقا للمصلحة والظرف. وأيدت الجنوب ضد الشمال فى السودان، والبربر ضد العرب فى المغرب العربى كله، والبوليساريو ضد المغرب من أجل مزيد من تفتيت الأوطان. وجعلت نفسها حامية للأقليات العرقية والطائفية ضد اضطهاد الأغلبية لها. ونسى العرب **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾**، وجعلوها أشداء بينهم رحماء على الكفار. ونسوا المثل الشعبى "أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب".

استعدت شعوب وثقافات أخرى داخليا لمواجهة المخاطر الخارجية. ومهدت أرضيتها الاجتماعية والثقافية لمقاومة الغزو الأجنبى، وأثبتت المجسات الأجنبية أن هذه الشعوب والثقافات صلبة جامدة لا يمكن اختراقها مثل الصين واليابان وكوريا الشمالية وكوبا وماليزيا. يحمى الصين وحدتها القومية وثورتها الاشتراكية ومشاريعها التنموية ومعدل زيادة نتاجها القومى بما يقارب ٩ ٪. يخطب الجميع ودها. ويخشى من مستقبلها وفائض إنتاجها بل ومن قوتها العسكرية. حررت هونج كونج سلميا. وبقت تايوان. ومهما حاول الغرب الدخول من منطلق الحريات العامة وحقوق الإنسان فإنها تظل صامدة. بل وتطلب الاعتذار من دولة كبرى إذا ما أسقطت طائرتها للتجسس عليها.

واليابان مثل الصين تحافظ على وحدتها الوطنية بالديموقراطية التوافقية وبالإجماع الوطنى على القضايا الكبرى. هُزمت فى الحرب العالمية الثانية ولكنها انتصرت فى النمو الاقتصادى وفى الصناعات الحديثة. وغزت منتجاتها أسواق العالم. وهى تستورد المواد الأولية من الغرب والطاقة من الخليج وليس لديها إلا العقل والإرادة.

وكوريا تقف صامدة فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية. تتمسك بحقها فى امتلاك الطاقة النووية والصواريخ العابرة للقارات. وتسعى إلى توحيد شطرى

شبه الجزيرة الكورية بين الشمال والجنوب. وتساعد دول العالم الثالث فى تنميتها الاقتصادية وصناعاتها العسكرية.

وكوبا أيضا صامدة فى مواجهة التدخلات الخارجية، ومحاولة قلب نظامها الوطنى الاشتراكى على مدى أكثر من أربعين عاما. تنمية مستقلة، وقضاء على البطالة، وتمسك بالاستقلال الوطنى بالرغم من قربها من الولايات المتحدة الأمريكية. وأصبحت أحد عوامل بلورة اليسار الجديد فى أمريكا اللاتينية فى فنزويلا وشيلى والبرازيل وبوليفيا. وقد يؤثر ذلك فى الوطن العربى عن قريب. فقد بدءا معا ، ناصر وجيفارا. وقد يعيدا البدء معا من جديد.

ومن البلاد الإسلامية تعطى ماليزيا نموذجا لإعادة بناء الداخل فى مواجهة التهديدات الخارجية. وتجهر بمواجهة الغرب الرأسمالى الصهيونى العنصرى. وجعلت الإسلام أحد مكونات الدولة والهوية الوطنية. وإيران صامدة فى مواجهة المخاطر الخارجية. تدافع عن استقلالها الوطنى وحقها فى امتلاك الطاقة النووية للأغراض السلمية أسوة بغيرها التى تجهر بالحرب والتوسع. بل إن تركيا التى كانت إلى عهد قريب جزءا من الحلف الغربى أصبحت الآن أكثر استقلالا، وابتعادا عن الغرب وإسرائيل، وأقرب إلى العرب وإيران دفاعا عن حق التعددية القطبية فى نظام العالم.

فمتى يبدأ العرب بترتيب البيت من الداخل والقضاء على الفجوات والفراغات فى الثقافة والمجتمع حتى تأمن الغيلة، وتستعد للمقاومة، وتقضى على مواطن الضعف فيها حتى إذا ما جستها قوى الهيمنة الخارجية وجدتها صعبة الاختراق.

٢- الإهانة والتحدى

جرت العادة فى فلسفات التاريخ أن يُقرن التحدى بالاستجابة. فكل تحدى له استجابة. ولكن فى الوطن العربى يقرن التحدى بالإهانة. فالإهانة تبدأ أولا وتتكرر وتتراكم حتى تأتى لحظة التحدى والرفض لها والانتفاضة ضدها والثورة عليها.

وفى هذه اللحظة التاريخية، مفترق الطرق، تتكرر الإهانات واحدة تلو الأخرى وكأن المواطن أصبح بلا كرامة، والوطن بلا شعب ودولة، وأن الساحة العربية كلها أصبحت بلا صاحب تفعل فيها القوى الخارجية كما تشاء، وتلعب فى أحشائها كما تريد. وتجرى العمليات الجراحية واستئصال الأعضاء، وتغيير مجرى الشرايين، وزرع الأعضاء الصناعية بما فى ذلك القلب كما تهوى وتخطط. والوطن فى حالة تخدير، جثة هامدة. تفعل فيه يد كبير الجراحين وفريقه ما يشاء. أصبح صدر المواطن عاريا يصوب إليه من يشاء، وسماء الوطن مفتوحة يخترقها من يريد، وأرضه بلا ثغور ولا حدود، يدهسها كل غانٍ مع أن مهمة الإمام فى الفقه القديم "الذب عن البيضة" بتقوية الثغور والدفاع عن الحدود. فالوطن كالبيضة إن لم يتم الدفاع عنه انكسرت قشرتها أى إرادتها، وسال بياضها بالدموع، وصفارها بالدم.

(*) الاتحاد: ١٧ مارس ٢٠٠٧، الدستور: ١٥ مارس ٢٠٠٧، الزمان: ١٧ مارس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٨ مارس ٢٠٠٧.

تسيل الدماء فى العراق بالمئات كل يوم على مدى أربع سنوات وكأن المواطن لا وطن يحميه، ولا نظام سياسى يدافع عنه، ولا دولة تعطيه الأمان كما أعطته عبر التاريخ، "وامعتصماه". وتثار النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية فيه لتؤجج نار الحرب الداخلية لتهميش المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الأمريكى، وإبعادها عن الأنظار. ويُقتل النساء والأطفال والشيوخ بدك المنازل بدعوى البحث عن رجال المقاومة. ويذبح الجرحى فى المساجد. فلا حياة للمسلمين مادامو يحبون الموت، ويعشقون الشهادة، وينالون الحياة الأبدية. ويطلق النار على كل مقاوم كما كان يطلق النار على كل شىء يتحرك فى فيتنام. فلا مكان للأسرى بالرغم من الاتفاقيات الدولية التى تنظم قواعد الحرب ومعاملة المقاتلين والأسرى.

وتسيل الدماء فى فلسطين كل يوم. تخترق المدن، وتدهم المنازل، ويحاصر الأحياء، ويؤسر المقاومون ويؤخذون فى العربات المصفحة، والأيدى فوق الرؤوس أمام الجند المدجج بالسلاح. فالوطن بلا كرامة، والسلطة بلا حضور، والمواطن بلا ستار أو غطاء يحميه. وفى نفس الوقت تُطالب المقاومة بالتوقف وينزع السلاح والاعتراف بالعدو المحتل دون مقابل إلا بوعود كلامية، دولتان متعايشتان، جنبا إلى جنب.

ثم جاءت الصومال، والدول الثلاث العراق وفلسطين والصومال أعضاء فى جامعة الدول العربية الاثنين وعشرين، لتقع تحت الاحتلال الحبشى بدعوى نصرة فريق على فريق، وتأييد الدولة ضد خصومها السياسيين، والدفاع عن السلم ضد الإرهاب، وعن النظام ضد الفوضى، وعن التحضر والتمدن ضد القاعدة والطالبان. وتتفشى الكوليرا لدى الفقراء بسبب الماء غير الصالح للشرب. فالكل يتصارع على السلطة. ولا أحد يدافع عن الشعب مع أن السلطة للشعب.

وما يحدث فى دول الجوار الإسلامى، أفغانستان والشيشان وكشمير، هو امتداد لما يحدث فى الوطن العربى. ويتم الغزو الأجنبى للدول الثلاث بطريقة القرن التاسع عشر، والاستعمار فى أوجه. والغزو العسكرى والاحتلال المباشر هى وسيلة التخاطب بين الشعوب. فالحق هو القوة. والقوة هى الحق. وتأتى أصوات الاستغاثة عن بُعد من المسلمين فى بورما وتايلاند، أصوات بعيدة تنضم إلى الأصوات القريبة فى فلسطين والعراق.

ويُعلق أحد الرؤساء العرب على المشنقة هو ورفاقه حتى انفصال الرأس عن الجسد بمحاكمة غير شرعية ودفاع منقوص وأحكام مسبقة صدرت. فلا مانع اليوم من اليد الطويلة، والقوة القاهرة. والقاهر للداخل لا يقوى على صد القهر من الخارج حتى لو تحالف معه. والدرس لكل رئيس عربى يخرج على بيت الطاعة. وتظل الصورة فى الذاكرة الوطنية. ولا يتحملها حتى الأطفال. فيشنقون أنفسهم طوعا فى اليمن وباكستان. ويتحول الرئيس من ظل الله فى الأرض إلى أسطورة فى التاريخ مثل المسيح على الصليب، ويتحول الطغاة إلى شهداء.

ويُعلن كل يوم عن أن القوات الأمريكية وجدت فى الخليج لتبقى، وأن بقاءها ليس مرهونا بما يدور فى العراق أو فلسطين أو إيران أو سوريا أو لبنان بل دفاعا عن المصالح الأمريكية فى المنطقة، النفط وعوائده، والمواقع الاستراتيجية والأسواق ومناطق النفوذ. فالحرب الباردة لم تنته بعد. والإمبراطورية الأمريكية للمحافظين الجدد مشروع متواصل، من رئيس إلى رئيس، ومن إدارة إلى إدارة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اندلاع الحرب العالمية الثالثة. ويُعلن عن بناء أكبر قاعدة عسكرية فى شمال العراق للتنسيق مع قاعدة انجرليك فى تركيا لحصار الاتحاد السوفيتى من الشمال والجنوب. فالأرض لا صاحب لها، وكما فعلت الصهيونية فى فلسطين وبداية الهجرات اليهودية منذ أوائل القرن الماضى، شعب

بلا أرض فى أرض بلا شعب. وتبنى قاعدة ثالثة فى قازخستان، أكبر قاعدة فى آسيا، حتى يتم حصار آسيا كلها من الجنوب والغرب. الشمال جليد، والشرق الصين هى الهدف من الحصار.

ويتم تهديد سوريا ولبنان وإيران كل يوم. فسوريا تؤيد المقاومة فى العراق وطريق إيصال الأسلحة إلى حزب الله فى جنوب لبنان. وترفض الصلح مع إسرائيل والجولان محتل. وهى آخر من تبقى من النظام العربى القديم والمشروع القومى العربى فى مناهضة الاستعمار والصهيونية فى الخارج، وتحقيق الوحدة والاشتراكية فى الداخل. والمطلوب من المقاومة فى لبنان نزع السلاح وجزء من التراب الوطنى مازال محتلا، ومطلوب أيضا التخلى عن القضية الفلسطينية والهم العربى وأن تكون جزءا من المشروع الأمريكى الصهيونى للبنان والوطن العربى. وتُهدد إيران لأنها تجرأت على الدفاع عن إرادتها الوطنية وحقها فى امتلاك الطاقة النووية حتى للأغراض السلمية، وأربعون دولة تمتلك هذه الطاقة. ومن دول الجوار من حولتها إلى سلاح نووى فى إسرائيل والهند وباكستان وكوريا فى الشرق. وأمريكا لا تهددها بالعدوان طبقا للمعيار المزدوج الذى يمارسه الغرب فى سياساته الداخلية بين البيض والسود، بين المواطنين والمهاجرين، وفى سياساته الخارجية بين إسرائيل والدول العربية والإسلامية. ويطالب لبنان بقبول محكمة دولية للتحقيق فى اغتيال رئيس الوزراء السابق، تحقيقا سياسيا وليس جنائيا مع تجاوز نظام القضاء اللبنانى. وفى نفس الوقت تتم تبرئة دولة صربيا من جرائم البوسنة والهرسك، وذبح الآلاف من المسلمين فى المناطق الآمنة التى أعلنتها الأمم المتحدة. ولا يتم التحقيق دوليا فى اغتيال عالم الذرة المصرى المشد، ولا فى وقوع الطائرة المصرية المدنية بالقرب من نيويورك، ولا فى اغتيال إسرائيل لأبى جهاد فى تونس أو أبى عمار فى رام الله أو فى مقتل مئات من المصريين العزل الأسرى فى سيناء

فى عدوان ١٩٦٧ أو فى العدوان الأمريكى على العراق وأفغانستان أو الإسرائيلى على فلسطين أو الروسى فى الشيشان أو الهندى على كشمير.

وتستمر الإهانات بخضوع النظم السياسية لإرادة الأجنبى المحتل مثل تأييد خطة بوش الأخيرة لتحقيق الأمن فى العراق والمقاومة تزداد كل يوم وتشتد. وتقبل دول عربية مركزية أن تكون طوقا للاعتدال ضد مخاطر نظم عربية أخرى أو مع دول الجوار متهمة بالتطرف. فيقسم الوطن العربى إلى محاور ومناطق نفوذ طالما قاومها فى تاريخه الحديث قبل الثورات العربية فى النصف الأول من القرن العشرين أو بعدها فى النصف الثانى منه. وأخيرا نشأ طوق آخر من دول سنية لإحكام الطوق حول الدول الشيعية لقسمة العالم الإسلامى قسمة داخلية بدلا من مواجهة العدوان والهيمنة الخارجية. وتحولت دول الطوق من حصار إسرائيل إلى حصار إيران.

وتستمر الإهانات وتزداد يوما وراء يوم. فيتعود عليها المواطن فيقبلها، ويستسلم لها، ويعتبرها القاعدة وليس الاستثناء. وتتأثر نفسية الشعوب وتفقد احترامها لذاتها، وتتعود على الإهانة وهى تصارع من أجل لقمة العيش وغريزة حب البقاء. وتتحول الإهانات المتكررة إلى ذاكرة جماعية وتخلق وعيا تاريخيا بالرضا والقبول والاستكانة والاستسلام للأمر الواقع. ويصاب بالفتور واللامبالاة كما وصف الكواكبى فى "أم القرى". وينعزل المواطن والشعب عن العالم. وينكمش على ذاته ويتحول إلى محميات كما حدث للهنود الحمر فى الولايات المتحدة، بعد أن تعود على العجز ووجد مهربا له وخلاصا فى الطرق الصوفية وقيم الفقر والصبر والرضا والتوكل والقضاء والقدر والاستسلام.

ومع ذلك فالكرامة الإنسانية والاحترام الذاتى جزء لا يتجزأ من الوجود الإنسانى. يحميه من الضياع والاندثار. يتمسك به بالقلب وإن استعصى الكلام

باللسان أو التغيير باليد. يظهر فى مقاومة المثقفين الوطنيين ومظاهرات الطلاب. ويندلع بين الحين والآخر فى الحركات الشعبية للعمال والنقابات والاتحادات. وينفجر فى الانتفاضات الشعبية مثل انتفاضة الخبز فى يناير ١٩٧٧، وانتفاضة الفقر للأمن المركزى فى يناير ١٩٨٦، ويتفجر فى الثورات الوطنية مثل ثورة عرابى فى ١٨٨٢، وثورة ١٩١٩، وثورة يوليو ١٩٥٢.

فكما أن كل تحدى له استجابة فكذلك كل إهانة لها تحدى **﴿ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾**.

obeikandl.com

٣- الاتجاه المعاكس أم الاتجاه المغاير؟

من أهم البرامج الإعلامية الذائعة الصيت فى أهم القنوات الفضائية العربية التى أحدثت قفزة إعلامية فى الإعلام العربى والذى يراه الملايين من العرب برنامج "الاتجاه المعاكس". وهو من حيث الشهرة والذيوع له كل التقدير. يثير الذهن، ويدفع إلى التفكير، ويحرك المياه الراكدة فى ثقافة غلب عليها الرأى الواحد، والفرقة الناجية، والإعلام الحكومى. يفضح المواقف التى تقبل التطبيع مع إسرائيل والتى تود تكرار النموذج العراقى، الغزو الأمريكى، تخليصا للوطن العربى من النظم التسلطية، وتحريرا له من القهر والطغيان. ويكشف عن أهداف الليبرالية الجديدة التى تريد وراثة الليبرالية القديمة التى سادت مصر فى النصف الأول من القرن العشرين، والقومية العربية والاشتراكية التى حملتها ثورات الضباط الأحرار فى النصف الثانى منه. كما يتمتع بحيوية فائقة، تشد الأنظار إليه، وتجعل المواطن العربى يثق بإعلامه بعد أن أشاح بوجهه عنه لأنه تعبير عن النظم السياسية التى يعانى منها الأمرّين والتى تبدأ بأخبار الرئيس وحرم الرئيس وكل رجال الرئيس. تتمثل فيه القدرة على الهجوم والدفاع والجدل والسجال والتوثيق والإطلاع على آخر التقارير والمقالات لتدعيم وجهتى النظر. ويتعرض للموضوعات التى تختلج فى قلب كل عربى والتى لا يجرؤ الحديث عنها بصوت عال مسموع، الغزو الأمريكى للعراق، نفط العراق، المقاومة العراقية، تدمير العراق، فتح وحماس، مؤتمرات القمة العربية،

(*) الاتحاد: ٢١ أبريل ٢٠٠٧.

القدس ...الخ. أصبح البرنامج الرئة التى يتنفس بها كل عربى فى عصر بلغت فيه القلوب الحناجر، والعقل الذى يفكر به كل عربى فى زمن ساد فيه الإعلام الرسمى ورفعت الشعارات فى بعض المطارات "لا تفكر نحن نفكر لك"، والعين التى يشاهد بها كل عربى فى وقت غمضت فيه الأعين، والأذن التى يسمع بها كل عربى بعد أن صمت الآذان بالرغم من علو الضجيج وشدة الصخب، وسيادة الضوضاء.

ومع ذلك قد ينتهى "الاتجاه المعاكس" إلى عكس ما يهدف إليه. وبقدر ما يحقق من نجاحات يحقق من إخفاقات. وبقدر ما يعطى الزهو بالإعلام العربى يسبب الاحباطات فى النفس العربية بعد أن اختلف الرفاق، وتقاتل المتخاصمون، وتلاعن المختلفون، دون وحدة تجمعهم إلا شد الأيادى من الأخ مقدم البرنامج بعد أن كادا يتشابكان بالأيدى وهو يفرّق بين المتقاتلين.

فلا توجد نقطة التقاء بين الاتجاهين المتعاكسين. أحدهما ضد الآخر ونقيضه. يهدم الأول ما يبنيه الثانى. ويهدم الثانى ما يبنيه الأول. ويبدو المثقفان العربيان وكأنهما لا ينتسبان إلى وطن عربى واحد بل وإلى قطر عربى واحد. أحدهما أمريكى غان والآخر وطنى مقاوم. الأول إسرائيلى تطبيعى والثانى مناضل يبغى الشهادة. الغاية الهدم المتبادل للشىء ونقيضه، والاستبعاد والإقصاء. وقع فى ثنائيات حادة بين البطولة والخيانة، والوطنية والعمالة، والحق والباطل، والصواب والخطأ، والخير والشر، والملاك والشيطان. ويشتد الاستقطاب بين الفريقين المتنازعين. هذا سلفى وذاك علمانى، ولا سبيل للالتقاء بينهما فى الإسلام المستنير هذا مقاوم للتطبيع وذاك من أنصاره، ولا سبيل للالتقاء بينهما فى مبادرة السلام العربية، الأرض مقابل السلام. فيصبح الحوار حوار الطرشان، ويزيد من كلب الزيت على النار ويكون أشبه بنقار الديوك، كل من الفريقين ينقر الآخر فى رأسه حتى يسيل دمه.

وتتبادل الاتهامات بالخيانة والعمالة، بالصّدامية والأمريكية، بالقهر والاحتلال. ويصل الأمر إلى التجريح الشخصى، وإعلان السيرة الخفية لكل طرف، والكشف عن سلوكه. فالأمر ليس فقط اتجاها معاكسا بل سلوكا نقيضا. ويظهر المفكرون والمثقفون كأبطال إعلاميين مثل مشايخ الفضائيات. وينالوا من الشهرة الكثير من شهرة البرنامج. ويفسح المجال للصحفيين والكتاب ليزدادوا شهرة بعد أن عزت القراءة لحساب المشاهدة. ويُظهر كل طرف قدراته الشخصية فى الهجوم على الآخر، والدفاع عن النفس، واتهام الغير وتبرئة النفس. ويضيع الموضوع لصالح الشخص. ويقضى على الموضوعية لصالح الذاتية. ويتحول الفكر كله إلى ثنائيات متعارضة متضادة كما هو الحال فى المانوية القديمة التى لا يلتقى طرفاها، النور والظلمة، والفضيلة والرذيلة. وهو عكس ما يهدف إليه التوحيد فى لقاء الأطراف: الله والعالم فى العناية، الدنيا والآخرة فى العمل الصالح، الخير والشر فى النفس، الأصل والفرع فى القياس، الصواب والخطأ فى الاجتهاد. وفى المواقف الحدية يلتقى الطرفان فى الباطن وإن تناقضا فى الظاهر. فكلاهما إطلاقى. كل منهما يمثل الفرقة الناجية والآخر الفرقة الهالكة. وهو ما تعانى منه الثقافة بسيادة الرأى الواحد، وما تعانى منه السياسة بسيادة الحزب الحاكم، والبقاء فى السلطة مدى الحياة.

والخطورة تساوى الطرفين، الشىء ونقيضه، لا غالب ولا مغلوب مما يوقع المواطنين فى الحيرة. لكل طرف حججه ومنطقه، الفلسطينى والإسرائيلى، العراقى الوطنى والعراقى الأمريكى مما يصيب المشاهد بالحيرة واليأس. فيتوقف عن التفكير والفعل أو يأخذ جانبا ضد آخر فتنشق الأمة إلى فريقين متصارعين. ويزداد تقسيمها وتفتيتها وتفرقها وتشيعها إلى فرق وأحزاب متناحرة.

وتستعمل كل أساليب الإقناع اللغوية والحركية. فقد تحول البرنامج إلى

مسرحية تشد الانتباه وأحيانا إلى سيرك بين المتقاتلين المتناطحين، يتفوق فيها البطل على خصومه. ويهزم فيها الخير الشر. ويخشى من ذلك على سؤال: أين المعركة فى الذهن أم فى الواقع؟ على المسرح أم فى الميدان؟ فى "التليفزيون" أم على الأرض؟ وقد يشيع ذلك فى المشاهدين الرغبة فى الانتصار، والتوق إلى النصر تعويضا عن الإحساس بالهزائم المتكررة منذ ١٩٤٨، احتلال فلسطين، حتى ٢٠٠٣، احتلال العراق، والعجز عن المشاكرة وصنع النصر. قد تعطى الإحساس بالطمأنينة بأن العرب أصحاب معارك، وهو يسمع " يا أهلا بالمعارك" وأنها معارك متساوية بين الأطراف. المهم أن يشد الحيل لمزيد من الكلام والبلاغة وحسن القول وقوة الإقناع مما دفع بأحد المستشرقين المعاصرين إلى الحكم على العرب بأنهم "ظاهرة صوتية".

أليس من الأفضل منطق الحوار، وآداب الحوار دون تكفير طرف لطرف أو تخوين طرف لطرف **﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾**؟ أليس من الأفضل الوصول إلى الحد الأدنى من الاتفاق بين فرقاء الوطن الواحد وهو الوطن. فالوطنية هى الحل، وليست الاختيارات السياسية المسبقة أو المصالح الشخصية غير المعلنة أو الأهواء والانفعالات التى تخفى الهويات البديلة الطائفية أو العرقية فى غياب الهوية الوطنية أو القومية؟ ولصالح من شق الصف الوطنى وضرب الاتجاهات الفكرية والاختيارات السياسية بعضها بالبعض الآخر، وزيادة الفرقة والتشتت وهى سمة الآخرين **﴿بأسهم بينهم شديد﴾** وليس سمة المواطنين **﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾**؟

إن التعددية السياسية والفكرية لا تعنى التضارب والتناقض والتناطح بل السماح بأكبر قدر ممكن من المداخل النظرية للموضوع العملى الواحد. فالحقيقة النظرية وجهة نظر، رأى، منظور، رؤية. فى حين أن الحقيقة العملية، تحقيق

المصالح العامة، واحدة. على هذا الأساس أجمع الفقهاء على أن الحق النظرى متعدد، والحق العملى واحد "كلكم راد وكلكم مردود عليه". وكان الرسول يقول لأبى بكر: يا أبا بكر انزل قليلا. وكان يقول لعمر: يا عمر اصعد قليلا. فقد كان أبو بكر يتمسك بالنص والمبدأ، وعمر يدافع عن الواقع والمصلحة.

إن أحد أسباب المواقف الحدية هو الانفعال والهوى. وأجد أسباب المواقف التوحيدية هو العقل والواقع. أيهما أفضل إذن: الاتجاه المعاكس أم الاتجاه المغاير؟ فالمعاكس مناقض ونقيض فى النظر وفى العمل. والمغاير مجرد خلاف فى النظر دون خلاف فى العمل.

obeikandl.com

٤- القهر الاجتماعي

تتعدد أنواع القهر كما تتعدد أسباب الموت، والنتيجة واحدة. فالموت موت نفسي. وأشهر أنواع القهر هو القهر السياسي، علاقة الحاكم بالمحكوم في نظم الحكم التي تقوم على التسلط وكبت الحريات العامة، والتفرد بالقرار. وهو ما سماه ابن رشد "وحدانية التسلط". كما تقوم على تزييف الانتخابات، وأجهزة الأمن، وقوانين الطوارئ، والاعتقال والسجن بلا محاكمة. وهي النظم الأيديولوجية التي تحكم باسم الحقيقة المطلقة، دينية أو سياسية، الفرقة الناجية الواحدة التي في الحكم في مقابل الفرق الضالة الهالكة التي في المعارضة.

وهناك القهر الديني والثقافي. ويقوم على إجبار الناس على الإيمان بعقائد دينية، سنية أو شيعية، أو سياسية معينة، اشتراكية أو قومية، نازية أو فاشية كما حدث في التاريخ بإجبار الناس على القول بخلق القرآن أو انبساط الأرض دون كرويتها أو مركزيتها ودوران الشمس حولها، وإجبار الناس على إتباع تأويل معين للنص الديني أو التضييق عليهم في السلوك اليومي باسم تطبيق الشريعة. بل ويحدث ذلك أيضا في الفنون والآداب، وليس فقط في العلوم والديانات، وإجبار صغار المبدعين على إتباع مذهب معين في الفن والأدب.

وهناك أيضا القهر الاقتصادي، قهر الفقر والضنك والعوز والحاجة. يشعر به العامة قبل الخاصة. هو قهر رغيف العيش والقوت اليومي الذي يدعو إليه

(*) الاتحاد: ٢٨ أبريل ٢٠٠٧، الزمان: ٢٦ أبريل ٢٠٠٧، العربي الناصري: ٢٩ أبريل ٢٠٠٧.

المسيحيون فى الصلاة الربانية "اعطنا خبزنا اليومى" والذى من أجله قال عمر بن الخطاب "والله لو كان الفقر رجلا لقتلته". وهو ناشئ عن سوء توزيع الثروة فى البلاد. ويؤدى إلى الغش والاحتيال لدى الأغنياء ليزدادوا غنى، ولدى الفقراء من أجل غريزة حب البقاء. وبسببه تقوم الهبات الشعبية وثورات الجياع.

والأخطر من ذلك كله القهر الاجتماعى، قهر العرف والعادات والتقاليد الذى نقده القرآن الكريم **﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾** وفى آية أخرى **﴿مهتدون﴾**. وعلى هذا الأساس لم يعتبر الأصوليون القدماء التقليد مصدرا من مصادر العلم مثل الحس والعقل والخبر الصحيح. وثار المصلحون الدينيون المعاصرون كالشوكانى والأفغانى ومحمد عبده أو الليبراليون مثل الطهطاوى على التقليد، وجعلوه أحد أسباب التخلف الاجتماعى والانحطاط الحضارى.

إتباع التقاليد هو إتباع القدماء بالرغم من القول المأثور الذى يُعزى إلى أفلاطون كما ينسب إلى الرسول "لا تؤدبوا أولاكم بآدابكم فقد خلقوا لغير زمانكم". القدماء هم الأوائل. عاشوا فى الماضى. وتغير الزمن. ولكل زمن عاداته وتقاليده وأعرافه. وكثيرا ما كتب علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا عن تطور العادات الاجتماعية، وتغير التقاليد. هى تعبير عن سلوك الناس فى كل وقت. والزمان متغير، والتقاليد تتغير بتغيره. التقليد اشتقاقا يعنى الإتباع فى حين أن التجديد يعنى الإبداع. ويتهم أنصار التقليد أنصار التجديد بالابتداع. وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار. فيؤثر الناس السلامة والإتباع عن غير اقتناع.

ويتبع الناس العرف وهى العادات الشعبية السائدة. وتسود الأعراف الطبقات الشعبية مثل طهارة الإناث وما تسببه من قهر نفسى للأنثى منذ الطفولة حتى البلوغ. ويتبع الناس العادات الاستهلاكية فى الأعياد مثل مأكولات رمضان ومشروباته وكحك العيد بما لا تطيقه ميزانية الأسر، وضرورات التباهى والفاخرين

الناس. وقد يؤدى ذلك إلى جرائم بين الرجل وزوجه. وهى عادات وأعراف من وضع المجتمع وتطوره عبر التاريخ لتوظيفها اجتماعيا لخلق دين شعبى موازللدين الشرعى. يلهى الناس ويبعدهم عن ظلم الحكام.

وتحول التيارات المحافظة فى المجتمع هذه العادات والأعراف إلى ثوابت مع أنها متغيرة بتغير المجتمع. ومنها عادات ترجع إلى عصر الصحابة والفتنة الأولى مثل التلاعن، وأقوال مأثورة مثل "إن الله يزع بالسلطان ما يزع بالقرآن"، وأدبيات طاعة الحكام وعدم الخروج عليهم وإلا كان الجزاء القتل. الثوابت هى القيم الإنسانية العامة التى لا تتغير بتغير الزمان مثل حقوق الإنسان، واحترام النفس، والعدالة الاجتماعية، والمساواة بين البشر فى الحقوق والواجبات، والحريات العامة، والشورى، والمصالح العامة. وهى المقاصد العامة التى تقوم عليها الشريعة، الحفاظ على الحياة والعقل والدين والعرض والمال. الحياة هى الحاجات الأساسية للناس من طعام وشراب ولباس وسكن وتعليم وعلاج. والعقل هو حق الإنسان الطبيعى فى المعرفة والفكر والنظر. والدين هى الثوابت العامة التى يجتمع عليها الفقهاء. والعرض هى الكرامة الشخصية والوطنية. والمال هو الثروة الفردية والثروة العامة.

وقد وضعت بعض المجتمعات التقليدية عدة قوانين للضبط الاجتماعى لمنع تحركه مثل قانون العيب، وقانون الاشتباه، وقوانين حماية المجتمع والأمن والاستقرار السياسى مثل قوانين الطوارئ ومكافحة الإرهاب. مهمتها إرهاب الناس وتخويفهم ومنعهم من السلوك الطبيعى التلقائى القائم على الثقة بالنفس واحترام الآخرين. ثم تحولت هذه القوانين إلى عادات وتعبيرات مثل "عيب عليك"، "يا عيب الشوم"، "حشومة"، "اختشى"، "يا نهار أسود"، "يا دهوتى"، يا مصيبتى". وأصبح كل خروج على هذه القوانين انحراف وشذوذ.

ولما كان المجتمع يتقدم بصرف النظر عن أساليب الضبط الاجتماعى، تنقسم الحياة إلى ظاهر يتبع التقاليد والأعراف والعادات، وباطن يتبع تطور الحياة وتغير قواعد السلوك الاجتماعى. فتنشأ مظاهر النفاق والرياء والتظاهر والكذب. قول باللسان لا يقتنع به القلب. وسلوك فى الظاهر لا يتم عن إيمان بالباطن. وتصبح الحياة كلها حجاب فى الظاهر، وسفور فى الباطن. كما تنشأ ظواهر الكبت وأمراض القهر النفسى وقمع الرغبات. ويعيش الإنسان بشخصيتين. ويقابل المجتمع بوجهين. وجه يرضاه المجتمع، ووجه آخر يرضاه الفرد، لا يجرؤ على التعبير عنه صراحة. ويكون له سلوكان، سلوك اجتماعى علنى، وسلوك آخر فردى سرى. الأول كاذب، والثانى صادق. فإذا ما تجرأ أحد على الإعلان والتمسك بالوجه الواحد والسلوك الواحد والشخصية الواحدة تم إقصاؤه واستبعاده واتهامه بالردة والكفر، وكان جزاؤه القتل الصريح. ويؤثر البعض السلامة والرضا بالسلوك الاجتماعى، وينغمس فى الدنيا ينهل منها بالحلال. والأرزاق مقدرة مسبقا.

ومع ذلك ظهرت نماذج ثائرة على هذا القهر الاجتماعى فى التاريخ، فى كل عصر، وفى كل ثقافة، ولدى كل شعب. ثار سقراط على تعدد الآلهة عند الأثينيين، فاتُّهم بإفساد الشباب. وحُكم عليه بالموت سما. ورفض الهرب درءا للظلم، وهو رذيلة، طاعة لقوانين البلاد وهى فضيلة. وثار ديكارت على عادات العصر الوسيط فى التفكير والتعلم. وثار اسبينوزا على العقائد اليهودية مثل شعب الله المختار وأرض المعاد. وحُرق جيوردانو برونو حيا فى روما لأنه قال بعقيدة مخالفة للفلك السائد ولتصور الإنسان. وثار مارتن لوثر على الكنيسة رافضا توسطها بين الإنسان والله، واحتكارها لتفسير الكتاب المقدس وتبعيتها لسلطة الآباء الأولين. قُدّم المفكرون الأحرار الذين رفضوا عادات وتقاليد وأعراف القدماء أمام محاكم التفتيش فى أواخر العصر الوسيط الأوروبى. وكان جزاؤهم القتل أو الحرق أو

التعذيب أو النفى أو السجن.

وفى تاريخنا القديم حدث نفس الشىء. فقد ذبح الجعد بن درهم يوم عيد الأضحى أسفل المنبر لأنه كان معارضا للحكم الأموى ويقول بقدرة الإنسان على الاختيار. وقتل أبو نواس بتهمة الزندقة. وصلب الحلاج بتهمة الخروج على العقائد. وذبح السهروردى لقوله بحكمة الإشراق.

كانت كل حركات التجديد والتحديث والنهضة والإصلاح والتغير الاجتماعى والنهضة الحضارية والثورة ضد القهر الاجتماعى بالرغم من سطوته. وكان الاستسلام للقهر الاجتماعى أحد أسباب الركون والخمول والتأخر والانحطاط. لا تقوم نهضة على قهر، ولا تقدم على تقليد، ولا ثورة على تسليم. فى لحظات الانتصار يتم تغيير التقاليد، وفى لحظات الانكسار تتم المحافظة عليها حماية للمجتمعات. وهى حماية وقتية بالانكفاء على الداخل لحماية النفس بعد أن ضاع العالم. ولما كان المجتمع العربى يمر الآن بمرحلة انكسار، باستثناء المقاومة فى العراق وفلسطين، اشتد القهر الاجتماعى. ولما كان أيضا يتوق إلى الانتصار يكون تحرره من القهر الاجتماعى قريبا.

٥ـ التناقضات الهدامة

مازال الغرب هو الذى ينتج المفاهيم ونحن نشرحها. مازال الغرب يزهو عليها بأنه وحده القادر على التنظير المباشر للواقع وإنتاج المفاهيم والنظريات فى حين أننا مازلنا نعتمد على النصوص القديمة كحجة سلطة نفسر بها أوضاع العالم، وتحدد لنا موجهات السلوك. مازلنا نعتمد على الإيديولوجيات الجاهزة، الإسلامية أو القومية أو الليبرالية أو الماركسية لتفسر لنا العالم، وتحدد لنا اتجاهات التحرك فيه.

فقد أنتجت أمريكا مفهوم "الفوضى الخلاقة". وتعنى بها تفجير التناقضات فى الوطن العربى والعالم الإسلامى بحيث يتفتت الكل، ويصبح كل جزء نقيض كل جزء كما هو الحال فى القنابل العنقودية. فتتناثر الأجزاء وتتباعد بعد أن يصطدم بعضها بالبعض الآخر فى اتجاهات عشوائية لا يمكن ضبطها مهما بلغت ضربات العصى للاعب الماهر، ويتحول الجسد العربى الإسلامى إلى شظايا يصعب جمعها من جديد فى جسد واحد بعد أن تبتلع القوى النشطة فى المنطقة مثل إيران أو تركيا أو إسرائيل بعضا منها إلى غير رجعة كما ابتلعت القوى الكبرى ممتلكات الدولة العثمانية بعد هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى، وابتلعت روسيا القيصرية فى القرن التاسع عشر ثم روسيا الاشتراكية للجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧. ومازالت ظواهر التفتيت والتقسيم للإمبراطورية

(*) الاتحاد: ٩ يونيو ٢٠٠٧، الدستور: ١٤ يونيو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٠ يونيو ٢٠٠٧.

العثمانية قائما. وظن العرب أن القومية العربية هى البديل عن دولة الخلافة تحميهم من التقسيم فاحتلت بلاد العرب. واستبدل العرب بالسيد الإسلامى السيد الغربى. ولم تستطع الجامعة العربية إعادة جمع الأقسام إلا على مستوى النظم السياسية المتناقضة فيما بينها. ولم تستطع القومية العربية كحركة تحرر وطنى إلا تحرير الأوطان بمساعدة الشقيقة الكبرى. وبعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ لم تستطع القومية العربية حماية الشقيقة الكبرى ولا فلسطين ولا سوريا ولا لبنان. واحتلت فلسطين كلها، نصفها فى العصر الليبرالى فى ١٩٤٨، والنصف الأخر فى المد القومى فى ١٩٦٧. ثم وقعت حرب الخليج الأولى، وظهر التناقض المفتعل بين القومية العربية التى احتجت بها العراق والثورة الإسلامية فى إيران. ثم وقعت حرب الخليج الثانية. وتحولت القومية العربية من مدافع عن الأوطان إلى محتل لها. وأصبح العدو للكويت هو العراق واقعا وليست إيران وهما أو إسرائيل أو الولايات المتحدة فعلا.

بدأت التناقضات الهدامة بالتناقض بين المقاومة الفلسطينية والنظم السياسية العربية كما حدث فى أيلول الأسود فى الأردن عام ١٩٧٠. ظهر التناقض بين المقاومة كحركة شعبية والنظام السياسى كدولة مستقلة تفرض سيادتها على مجموع أراضيها. وهو التناقض الذى ضحى عبد الناصر بحياته من أجل حله والتخلص منه فى نفس الشهر عندما أراق العربى دم العربى.

ثم وقع تناقض آخر بعد إنشاء السلطة الفلسطينية إثر اتفاق مدريد وأوسلو بين فصائل المقاومة والسلطة الجديدة، بين الثورة والدولة. وكلاهما شرعيان. ثم وقع التناقض بين أهم فصيلين للمقاومة، فتح وحماس. أراق فيها الفلسطينى دم الفلسطينى. ومازال الوضع متفجرا. وتسيل الدماء بعد أن تفشل محاولات إيقاف النزيف فى مكة والقاهرة.

وحاول البعض إيقاع التناقض بين حزب الله والدولة اللبنانية فى حرب تموز- يوليو العام الماضى. فقد دمرت لبنان بسبب خروج المقاومة على شرعية الدولة، حربها وسلامها ومبادرتها واستقلالها. ولم يشفع لها رصيدها السابق فى تحرير الجنوب. ثم يقع تناقض ثان الآن بين فتح الإسلام والجيش اللبنانى الذى ظهر بعد طول صمت. وأراق العربى دم العربى من أجل استئصال المقاومة بالرغم من أخطاء بعض عناصرها كأحد مراحل تصفية المقاومة فى لبنان، مرة فى الشمال ومرة فى الجنوب، ومرة فى الشرق، فى البقاع وغلق الحدود مع الشقيقة سوريا.

وبصرف النظر عن المقاومة فى لبنان يقع تناقض أشمل داخل لبنان بين الاستقلال الوطنى والتبعية للغرب والولايات المتحدة الأمريكية. وينزل الفريقان إلى الشارع للاعتصام وللاصطدام. فيسيل الدم اللبنانى بيد اللبنانى، وتشل الحياة السياسية. فريق ضد المحكمة الدولية احتراما لسيادة لبنان. وآخر مع المحكمة الدولية لإدانة سوريا كمقدمة للهجوم عليها وتصفية نظامها الذى مازال يرفض المخطط الإسرائيلى الأمريكى لتصفية مقاومته. فسوريا هى الجسر بين إيران ولبنان. فقد نجح التهديد الأمريكى بإخراج القوات السورية من لبنان. ومازال التهديد موجها إلى سوريا حتى يقل تأثير إيران فى الوطن العربى، سوريا والعراق ولبنان. فسوريا راعية الإرهاب فى لبنان، وإيران مورد السلاح الرئيسى إلى المقاومة فى جنوب لبنان.

ويقع تناقض آخر بين المقاومة الفلسطينية والعراق عندما أيدت المقاومة حرب الخليج الثانية والعدوان العراقى على الكويت نظرا لوجود خمسة وثلاثين ألفا من المقاومة الفلسطينية فى العراق. بناها العراق. والمقاومة الفلسطينية فى النهاية تدين بالولاء للقومية العربية بالرغم من انتماءاتها الإسلامية. تجمع بين الوطنية والقومية والإسلام، الدوائر الثلاث، ميادين التحرك للتحرر الوطنى العربى.

كانت المقاومة الفلسطينية مع الثورة الإسلامية فى إيران فى بدايتها. وكان من الصعب عليها أن تأخذ موقفا فى صف هذا الفريق أو ذاك. وبعد مرحلة الرومانسية الأولى فى الثورة الإسلامية والمقاومة الفلسطينية عادت الحسابات السياسية التى قد تخطئ أو تصيب فى الانحياز إلى أحد طرفى التناقض. وهو اختيار حر. وانعكس ذلك على الوجود الفلسطينى فى الخليج. فشعب فلسطين وعمال فلسطين لابد أن يُعاقبوا بسبب مواقف المقاومة الفلسطينية فى حرب الخليج الثانية. ونشأ تناقض فرعى بين الوجود الفلسطينى والوجود المصرى والوجود السورى فى تولى الوظائف فى الخليج. والكل يأكل من خشاش الأرض. وبدأ الترحيل للفلسطينيين إلى الوطن المحتل أو إلى أوطان بديلة.

وظهر التناقض بين ما تبقى من نظم قومية والوجود الفلسطينى فى ليبيا. فعلى العمال الفلسطينيين الرحيل إلى الدولة المقاومة التى لم تقم بعد ومازالت أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع، وإلى الوهم منها إلى الحقيقة. وموريتانيا تعترف بإسرائيل وتقيم علاقات دبلوماسية معها وهى ليست من دول الجوار بناء على ضغوط أمريكية لإيقاع التناقض داخل الشعب الموريتانى بين مقاومة التطبيع وأنصاره كما وقع التناقض فى جيش علىّ بين رفض التحكيم وقبوله. ثم تُفتح مكاتب اتصال أو مكاتب تجارية فى بعض دول الخليج وفى بعض دول المغرب العربى بحجة التجارة أو عودة اليهود المغاربة إلى أوطانهم. كما يقع التناقض بين الشقيقة الكبرى والفلسطينيين المقيمين حول صعوبات الإقامة والحصول على تأشيرات الدخول وتحديد النشاط السياسى أسوة بنشاط المعارضة من المصريين.

وتمتد التناقضات الهدامة خارج نطاق فلسطين ودول الجوار إلى تناقضات طائفية ومذهبية وعرقية فى شتى أرجاء الوطن العربى، أكراد وتركمان وعرب فى العراق وبداية التطهير العرقى والترحيل. وعرب وبربر فى دول المغرب العربى. وسنة

وشيعة فى العراق وباقى دول الخليج. ومسلمون وأقباط فى مصر. ودروز وأكراد وعلويين ونصيريين وسنة فى سوريا. وموارنة وسنة فى لبنان. وشماليون وجنوبيون فى اليمن، زيدية وشوافع. وشماليون وجنوبيون، وشرق وغرب فى السودان حتى يبقى القلب وحيدا بلا أطراف. ونجديون وحجازيون فى المملكة العربية السعودية، تقليديون ومجددون، محافظون وليبراليون. وقوميون وإسلاميون وقطريون فى الكويت. وإسلاميون وعلمانيون فى مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب. وقبائل متناحرة على الجوع والجفاف فى إريتريا والصومال، والحبشة لهما بالمرصاد.

لا يحمى الأوطان من هذه التناقضات الهدامة إلا وحدة الأوطان والولاء الوطنى. فالوطنية هى الحل بصرف النظر عن تعدديتها العرقية والطائفية والمذهبية. ولما كانت حدود الأوطان مصطنعة من بقايا الاستعمار القديم فإن القومية العربية قد تكون هى الحل للم شمل الوطن العربى، ورفع التناقضات الهدامة فيه كما كان الحال فى المد القومى العربى فى الخمسينيات والستينيات وكما جسدته الناصرية، أكبر تجربة قومية فى تاريخ العرب الحديث قبل الوحدة اليمنية بين شطرى اليمن. وقد يكون التجمع الثقافى هو الحل، الثقافة الإسلامية التى جعلت الوطن العربى بؤرة عالم إسلامى أوسع يتبرك به ويسعى إليه لتعلم اللغة والثقافة والتراث المشترك. قد تكون التجمعات الإقليمية هى الوسيلة لحماية الوطن من التفتيت والتمزق مثل تجمع مصر وإيران وتركيا لحماية المنطقة من التجزئة الداخلية والعدوان الخارجى.

وتتطلب هذه البدائل الوحدوية كلها خيالا سياسيا قادرا على تجاوز الواقعية السياسية المرة التى هى أقرب إلى الاستسلام منها إلى المقاومة. يتطلب نخبة ثورية جديدة بدلا من النخب الحاكمة التى طال عليها الزمن أو إرادة شعبية قوية تفرض نفسها على مسار الأحداث ﴿ورحمة ربك وسعت كل شىء﴾.

٦- غياب الوعى التاريخى

تهيج الذكريات فى يونيو- حزيران من كل عام، ذكريات الألم والمرارة والهزيمة من النكبة الثانية. ضاعت نصف فلسطين فى العصر الليبرالى فى ١٩٤٨. وضاع النصف الثانى فى العصر القومى الاشتراكى فى ١٩٦٧. ويقتتل الرفاق، حماس وفتح، فى العصر الإسلامى. والماركسيون إما فى السجون أو عند الله أو مازالوا يحللون أو ينظّرون. وتهيج الذكريات أكثر إذا ما انقضى عقد أو فاتت عقود من الزمان. فنحن الآن فى الذكرى الأربعين يونيو ١٩٦٧- يونيو ٢٠٠٧.

الاحتلال مازال على الأرض فى ما تبقى من فلسطين وعلى الجولان وفى جنوب لبنان، وسيناء منزوعة السلاح. وإسرائيل تفعل ما تشاء فى فلسطين ضد المقاومة بعد أن قص ريش العرب حول مصر، وحوصرت مصر داخل حدودها من عدو بلا حدود. أمريكا حدودها العالم كله. وإسرائيل حدودها ما يستطيع جيش الدفاع الإسرائيلى أن يصل إليه. والمنقذ، أمريكا، لا ينقذ ولا يبيع إلا الوعود، دولتان جنبا إلى جنب يتعايشان فى سلام. وإسرائيل تعتدى كل يوم على فلسطين، خارطة الطريق التى قبلها العرب على ضيم، حلم صعب المنال. ومبادرة السلام العربية لا أحد يتعامل معها. فإسرائيل تكسب بالعدوان أكثر مما تكسب بالسلام. وأمريكا تستعد للعدوان على سوريا وإيران الرافضين لمشاريع التسوية واللذين مازالا يدعمان المقاومة، تكسب من السلام ومن العدوان فى آن واحد كالمقامر الخبير الذى يكسب

(*) الاتحاد: ٦ يوليو ٢٠٠٧، الدستور: ٢٠ يونيو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٧ يونيو ٢٠٠٧.

فى كل الاحتمالات أمام العرب الذين يخسرون فى كل الأحوال.

بالنسبة لجيلنا، جيل الخمسينيات والستينيات ١٩٦٧ مازال جرحا فى القلب وغصة فى الحلق. هو جيل الحركة الوطنية فى الأربعينيات، جيل لجنة الطلبة والعمال، الجيل الذى تكوّن فيه الضباط الأحرار الذين فجروا ثورة يوليو ١٩٥٢. لم يندمل الجرح بانتصار أكتوبر ١٩٧٣ بسبب الهزيمة التامة للإرادة الوطنية بعد أن كانت الشعارات: خسرنا معركة ولم نخسر الحرب، ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، إزالة آثار العدوان. والأخطر هو الانقلاب على المشروع القومى الاشتراكى الوحدوى فى ١٥ مايو ١٩٧١، والتحالف مع الاستعمار والاعتراف بالصهيونية وهى أهداف عدوان ١٩٦٧. فالسياسة هى الحرب بوسائل أخرى طبقا للتعريف الشهير.

وفى استطلاع أخير لرأى الجيل الجديد من الشباب العربى أجرته إحدى قنوات الإعلام الشهيرة عن مدى وعيهم بهزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، كانت النتيجة صدمة لجيل الخمسينيات والستينيات الذى أفنى عمره فى التحرر الوطنى. ومازال يقاوم الاحتلال والاستعمار والهيمنة من الخارج والقهر والفساد والتبعية فى الداخل. ظهر التغييب التام للوعى التاريخى. وهو أخطر من تزييف الوعى. التغييب نفى تام فى حين أن التزييف وعى بديل. والوعى التاريخى هو أساس الوعى السياسى. لذلك يزهو علينا الغرب بأنه هو الذى أعطى العالم فلسفة التاريخ، واكتشف الوعى التاريخى بالرغم من اعتراف فيكو مؤسس فلسفة التاريخ مع هردر أنه استمد قانونه الثلاثى لتطور التاريخ، من مرحلة الآلهة إلى مرحلة الأبطال إلى مرحلة البشر، من مصر القديمة. وضعف أمريكا فى غياب وعيها التاريخى وتأسيس وعيها السياسى على المصالح والهيمنة وربما على العنصرية وسيادة الجنس الأبيض على الأجناس الأخرى، السوداء والسمراء والصفراء. والنازية والصهيونية والمحافظون الجدد بعض صياغاتها. والأخطر هو تغييب الوعى

التاريخى العربى الذى يمتد إلى سبعة آلاف عام فى مصر القديمة وحضارات ما بين النهرين وفى كنعان، فلسطين القديمة.

انتهى استطلاع الرأى إلى ستة مستويات للوعى التاريخى. الأول غيابه التام. فهذه الشريحة من الشباب لم تسمع عن ١٩٦٧. لم يأخذوها فى المدرسة. ولا يشاهدون البرامج السياسية فى أجهزة الإعلام. لا يقرئون الصحف. ولا يتحدثون مع الأصدقاء أو داخل الأسرة فى الشأن العام. لم تعد هناك مقررات فى التربية الوطنية أو التربية القومية فى المدارس. ومقرر التربية الدينية عقائد وعبادات دون معاملات وعلاقات دولية، وعى دينى فارغ من أى مضمون اجتماعى سياسى، وطنى أو قومى، خشية من الحركة الإسلامية وتسلل الجماعات الجهادية إلى عقول الطلاب. فينشأ وعى دينى جهادى خارج المدارس، فى الشارع وتحت الأرض.

والثانى يسخر من السؤال عن مدى الوعى التاريخى بهزيمة ١٩٦٧. فالمعارك لديه، كسبا أم خسارة، فى الأسهم والشركات وحسابات البنوك. لا يعرف فى الحياة إلا المال. ولا يهدف إلا إلى زيادته أو تبديده. وهو جزء من العولمة الاقتصادية. ورأس المال لا وطن له. وهو ممثل لأحد الشركات المتعددة الجنسيات. وحساباته فى البنوك الأجنبية. جسده عربى، وروحه أمريكية. وعقاله عربى، وذهنه عولمى، ولا مانع أن يقرأ **﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾**، وينسى **﴿والآخرة خير وأبقى﴾**. ويخشى من قراءة **﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال﴾**. ولا يعلم أن المال زائل وأن مدن المال قد اندثرت **﴿كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا﴾**.

والثالث وعى غائم بأننا هزمنا دون معرفة بالظروف والأسباب والعوامل والنتائج. وعى يأتى من وراء السحب أو من الماضى البعيد مثل استيلاء التتار على بغداد، والصليبيين على القدس، وسقوط غرناطة. لا يمسه فى شىء، ولا يؤثر عليه، ولا يتفاعل معه. فالتاريخ مصير. والماضى انقضى. والحاضر أبلغ وأوضح وأكثر

إشراقا. وغياب الوعى التاريخى هو سبب غياب الوعى السياسى. لا تطلب الهزيمة موقفا. ولا يحدد لفظ "انهزمنا" من الذى انهزم. وعى جماعى غامض، وهوية فارغة. واستسلام للأقدار، ونقص فى الحمية والرجولة. ولم يسمع خطاب عبد الناصر فى الأزهر يوم العدوان "سنقاتل".

والرابع انهزمت مصر. فالحرب حرب مصر. الشقيقة الكبرى فى الذهن وفى الوجدان لكنه غير متضامن معها فى هزيمتها منذ ١٩٤٨ حتى ١٩٧٣. مصر هو الغريب، المغاير وربما المخالف. هى التى مازالت تتمسك بمسئولياتها وتتحمل عبء العرب، ولكنها فى عالم وهو فى عالم آخر. لا يتماهى معها. له عالمه الخاص المباشر الواقعى. وهى لها عالمها الخاص المثالى. مصر هى البلد الغريب والتى تطالب العرب بالتضامن والتضحية. وهو يريد راحة البال دون أن يعكّر عليه صفو أحد.

والخامس انهزم عبد الناصر. فله الفضل فى أنه مازال يتذكر الاسم، ولكن الحرب حربه، والنضال نضاله، والمعركة معركته. لا يعلم أن عبد الناصر كان يجسد روح أمة، ويناضل باسم شعب، ويحارب من أجل الحرية والاستقلال. يوحد بين الزعيم والوطن، بين القائد والجيش، بين الخليفة والخلافة، بين الرئيس والدولة كما يشاهد فى واقعه السياسى وثقافته الإعلامية. هى إذن قضية فردية شخصية وليست صراعا تاريخيا بين قوى التحرر وقوى الاستعمار. وفى حالات أخرى ربما لم يسمع جيل بالاسم. سألنى أحد أحفادى مرة: يتكلمون فى المدرسة عن عبد الناصر، من هو، هل كان حاكما لمصر؟ اسم بلا مسمى، لفظ بلا مضمون، صورة بلا قضية.

والسادس احتلال الأراضى العربية وهو أقصى ما يستطيع الوعى التاريخى إحضاره. ومازالت الإجابة بها نوع من حضور الوعى التاريخى الوحدوى وهو الاحتلال والأراضى العربية. وهو أقصى ما يصل إليه من وعى سياسى، دون ذكر للمقاومة أو لطول فترة الاحتلال أو لمخاطر السلام أو لكامب ديفيد أو للاعتراف

والصلح والمفاوضة أو اللاءات الثلاث أو أى شىء عن المستقبل والمصير.

وعلى النقيض من تغييب التاريخ يحضر لدى العدو الإسرائيلى الوعى التاريخى فى أشد صياغاته العنصرية والعدوانية. فقد كان الإسرائيلى عندما يقابل إسرائيليا منذ هدم المعبد "العام القادم فى أورشليم". تقوم بالحفريات فى القدس وأسفل المسجد الأقصى لإثبات وجود المعبد ومن ثم ضرورة إعادة بناء ما انهدم بعد هدم ما انبنى على الأنقاض. وتكثر الدراسات والبحوث التاريخية حول الشعب الأول الذى سكن فى فلسطين، وهم اليهود وليسوا الفلسطينيين فى أرض كنعان. والاحتلال العربى للقدس مثل الاحتلال الصليبى والرومانى والفارسى والبابلى. للعدو رؤية مستقبلية، فالوعى التاريخى ليس وعيا بالماضى فحسب بل هو أيضا وعى بالحاضر وبالمستقبل، إسرائيل من الفرات إلى النيل، من مصر إلى العراق بل وشبه الجزيرة العربية. فقد كان اليهود فى مكة والمدينة واليمن والتى يعيش فيها اليمنيون فى المقابل وقت "الساعة السليمانية".

الخطورة الآن بعد تغييب الوعى التاريخى على الوجود العربى فى التاريخ. لم يعد يتحدث أحد عن العرب إلا فى مقابل البربر فى المغرب العربى، وإلا فى السودان فى مقابل الأفارقة فى الجنوب، أو فى مقابل الكرد والترك فى العراق. بل الحديث كله طائفى بين السنة والشيعة فى الخليج والعراق، أو المسلمين والأقباط فى مصر، والموارنة والمسلمين فى لبنان، والزيدية والشوافع فى اليمن. الخطورة الآن التضييق على مصر وقص أجنحتها وخناقها من الشرق بتفتيت العراق، ومن الغرب بتفتيت المغرب العربى، ومن الجنوب بتقسيم السودان حتى لا يُترك لمصر إلا الشمال الأوروبى الذى ورث الخلافة. وإذا كان الحلم القديم "مصر قطعة من أوروبا"، فلماذا لا يعود من جديد؟

٧- وطن بلا صاحب

لم يعد الوطن العربى قادرا على حماية سمائه والدفاع عن أرضه. تفعل فيه القوى الأجنبية ونظم الحكم ما تشاء وكأنه وطن بلا صاحب، جسم مخدر يفعل فيه الأجنبى ما يشاء بالتقطيع والترقيع ونقل الأعضاء بمساعدة الممرضين المحليين لخلق جسد جديد، فاقد الهوية، عاجز عن الحركة.

تقوم القوى الأجنبية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بالغزو المباشر للعراق وأفغانستان، وتقبض على زعمائها السياسيين بالغزو المباشر أو بالمحاكمة غير العادلة وإعدام رموزها الذين كانوا يعتبرون الوطن أيضا بلا صاحب، ملكية خاصة لهم، ودرس لباقى الزعماء الذين ملكوا الأوطان كملوك صغار يأتمرون بأمر ملك الملوك، والسلطان الأعظم. وإسرائيل تقتل من تشاء، وتدمر ما تريد. سماء لبنان وفلسطين مفتوحتان. وأرضهما تجول فيهما مدرعات العدو. وتفعل المقاومة الشعبية ما تستطيع فى العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان لتبين أن الأوطان لها صاحب. وهى الشعوب القاطنة فيها بعد أن أنكرتها القوى الكبرى من الخارج، واستعبدتها نظم الحكم فى الداخل. الأولى بالغزو العسكرى المباشر، والثانية بقوات الأمن والشرطة والجيش إن لزم الأمر ضد المعارضة السياسية، القلب الذى مازال ينبض بالحياة. الأولى لنهب ثروات الأوطان، النفط وعوائده. والثانية لنهب ثرواته الداخلية واحتكار مواردها وتهريب الأموال. وتجتمع السلطة السياسية والثروة

(*) الاتحاد: ٧ يوليو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٨ يوليو ٢٠٠٧.

الاقتصادية فى الحزب الحاكم المسيطر على جميع مظاهر الحياة المدنية. يزور الانتخابات، ويستأثر بالسلطة، ويدافع عن مكاسبه ومصلحته فى الحكم والبقاء فى السلطة إلى الأبد مثل رئيس النظام.

كما تفرض القوى الأجنبية إرادتها على الأوطان باسم الأمم المتحدة وقراراتها فى السودان لفرض قوات من الأمم المتحدة لحل قضية دارفور، والفلسطينيون منذ أكثر من نصف قرن ضحية دارفور الأولى، نزعهم خارج الأوطان، وتشريد نصف الشعب، ونزوحهم إلى الخارج، فى المخيمات فى دول الجوار أو فى بلاد النفط أو فى بلاد المهجر. ومن بقى منهم فى الداخل يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية تحت الاحتلال. وتفرض الإرادة الدولية إرادتها على لبنان تحت ذريعة المحاكمة الدولية مما يطعن فى القضاء الوطنى دون فرض إرادة مماثلة على إسرائيل وقد قتلت المئات من قادة المقاومة الفلسطينية.

وتدخلت القوات الإثيوبية ممثلة عن القوى الأجنبية للقضاء على نظام المحاكم الشرعية لصالح فريق آخر بدعوى القضاء على الإرهاب وتنظيم القاعدة. ويتم تهديد سوريا وإيران بالغزو المباشر من أمريكا وإسرائيل لوضع حد لإمداد المقاومة اللبنانية بالسلاح من إيران، والتدخل السورى فى لبنان، وتأييد المقاومة الفلسطينية، وزرع الإرهاب، ومقاومة مشاريع التسوية فى المنطقة. وكما تم ضرب المفاعل النووى العراقى يتم الإعداد للقضاء على المفاعلات النووية الإيرانية حتى لا تمتلك إيران سلاح الردع النووى الذى يهدد أمن إسرائيل، تنفيذا لمخطط التخلص تماما من الجبهة الشرقية فى الوطن العربى، سوريا والعراق وإيران، بعد أن تم تحييد الجبهة الجنوبية فى مصر، والشمالية فى تركيا باتفاقيات سلام واعتراف وصلح، والأراضى العربية فى سوريا ولبنان وفلسطين مازالت محتلة.

والصاحب الأوحد مشغول بالتوريث أو بالحكم باسم الفرقة الناجية أو الزعامة التاريخية أو الإلهام السماوى أو إرث الآباء والأجداد الذى يحافظ عليه الأحفاد. وتقوم الدول الصغرى بلعب دور الدول الكبرى مادام الوطن بلا صاحب، تمهد لنظام عربى دولى جديد يصبح فيه الوطن العربى مركز خدمات واتصال بين الشرق والغرب، ومجال للاستثمار مثل هونج كونج وتايوان وكوريا الجنوبية. وإسرائيل جزء فيه كقدرة على الاستثمار ودفع عوائد أكثر، ومرور أنابيب النفط من خلالها، وأداة للتحديث بعد أن تخلت مصر عن دورها التاريخى فى الوطن العربى فأصبح بلا صاحب. يأتيه من يشاء لملء الفراغ.

وأصحاب الأوطان فى السجون والمعتقلات، تحت أهوال التعذيب الجسدى والنفسى. يخضعون لقوانين الطوارئ أو مكافحة الإرهاب أو حماية الوحدة الوطنية. والأحرار منهم أقلية غير مؤثرة، مجرد صمام أمان للنظم السياسية القاهرة للداخل، والتابعة للخارج. والمثقفون والأدباء منهم يكتبون ويبدعون ثقافة وأدبا للتاريخ، يعبر عن مرحلة القهر والعجز والتبعية والضياع. يجرون عربة محملة بالأثقال بمفردهم ليصعدوا بها مسار التاريخ، يقيلون عثرته، وينهضون بكبوته حتى يأتى الزلزال فيغير الأوضاع، ويظهر التفاعلات الجديدة، وتنبثق منه المياه الجوفية السارية تحت الأرض أو حمم البراكين بعد طول غليان.

وليست السماء والأرض وحدهما هما المفتوحتان للغزو العسكرى المباشر بل أيضا العقول ونظم التعليم والمؤسسات الثقافية والإعلامية للتبشير بالوطن البديل، التعليم للسوق باسم الجودة والحداثة، والثقافة العالمية لنشر قيم الاستهلاك، والإعلام لنشر قيم العولمة، وأن العالم قرية واحدة قضت ثورة الاتصالات فيه على الخصوصيات الثقافية التى مازالت تسبح ضد التيار.

وأصحاب الأوطان الشرعيين في أغلبيتهم مشغولون بلقمة العيش أو بالبحث عن مصادر للرزق في الداخل أو في الخارج، بالكسب السريع أو الهجرة. فضعف الولاء، وعز الانتماء، وضاعت القضية التي طالما حلم بها الناس في الخمسينيات والستينيات. انتهى هذا الجيل الذي قاوم الاستعمار والصهيونية وساهم في بناء الدولة الوطنية وتحقيق المشروع القومي في الاستقلال الوطني والتصنيع لحساب جيل جديد يوهم نفسه بالسعادة والخلاص عن طريق الدين أو "الشيشة" أو السعي وراء ملذات الحياة في المأكل والمشرب والمسكن التي ملأت الحياة العامة في الطرقات والمنتديات. وتحزب الناس للنوادي الرياضية بعد أن انعزلوا عن الأحزاب السياسية.

فإذا ما كان للوطن صاحب وهو المقاومة الشعبية، فالكل صاحبه. يتناعون فيما بينهم دون إمكانية للوفاق الوطني في لبنان وفلسطين والعراق. يقتتلون فيما بينهم على السلطة في الداخل، والسلطة الفعلية في الخارج. نسوا مرحلة التحرر الوطني التي قامت فيها الجبهة الوطنية بتحقيق الاستقلال ودحر المحتل.

طالما أن الوطن بلا صاحب فإن التطرف سيزداد، والعنف سيشتد لمن يريد تحويل العجز إلى قوة، واليأس إلى أمل، ويوقف الانهيار المستمر. ستنشط الحركات السرية بكل طوائفها، تنتظر لحظة الوثوب على السلطة كما حدث في الثورات العربية في أوائل الخمسينيات بقيادة الضباط الأحرار. فمازال يتراءى في الخيال البعيد صور أحمس ورمسيس وصلاح الدين وقطز ومحمد على وعبد الناصر في مصر، وعمر المختار وصالح بن يوسف وبن بللا وعلال الفاسي بالمغرب، والمهدي بالسودان، وعز الدين القسام في فلسطين، وحزب الله في لبنان. فالأوطان لها صاحب، شعوبها وقادتها الوطنيون ومسارها عبر التاريخ.

٨- ممنوع من الدخول

إذا أمكن منع الأجساد من الحركة بالاعتقال والإقامة الجبرية والترحيل فى المطارات والمنع من الدخول بناء على القوائم السوداء فى الأجهزة الإليكترونية وملفات الأمن فإنه لا يمكن منع الأفكار من الانتشار. وطالما انتشرت أفكار المعتقلين بل والشهداء. فلا حدود أمامها، ولا مانع من انتشارها. فهى كالطاقة فى الطبيعة، والكهرباء فى الأسلاك. ولو أمكن منع الأجساد على الأمد القصير فإنه لا يمكن منع الأفكار على الأمد الطويل. ومنع الكتب ومصادرتها لا يمنع من انتشار الأفكار. فوسائل نقلها الآن مقامة عبر شبكات الاتصال (الإنترنت)، وموجودة فى القصور مثل الخمور. فكل ممنوع مرغوب فيه. ولو تم وضع الحواجز على الأرض فإنه لا يمكن وضعها فى السماء. ولو أمكن وضع الحدود فى الجغرافيا فإنه لا يمكن وضعها فى التاريخ. وإن أمكن تقطيع المكان إلى أجزاء فإنه لا يمكن تقطيع الزمان المتصل. وقد كان نيلسون مانديلا فى السجن ربع قرن وهو يحكم جنوب أفريقيا. وكان غاندى فى السجون البريطانية والمقاومة السلمية تنتشر فى ربوع الهند.

ولا فرق فى منع المفكرين من الدخول إلى الدول بعد الوصول إلى المطارات بتأشيرات رسمية فالأمن فوق الخارجية، والشرطة فوق السفارة. ولا فرق أيضا بين نظام عسكرى باسم الجمهورية ونظام ملكى باسم العائلة. فمهما اختلفت النظم السياسية إلا أنها متفقة فيما بينها على التسلط والقهر. الدفاع عن النظام فى كلتا

(*) الاتحاد: ١٤ يوليو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٥ يوليو ٢٠٠٧.

الحالتين هو الهدف الرئيسى . وأمن النظام فى كلتا الحالتين هو العامل الموجه. مع أن الأفكار الممنوعة قد تكون فى صالح النظام إذا أراد الأمن على الأمد الطويل عن طريق الحوار مع الخصوم وليس على الأمد القصير عن طريق المصادرة والمنع بأجهزة الرقابة والشرطة. قد يكون أثرها طيبا وليس سيئا، لصالح النظام وليس ضده، ولصالح الوطن الأبقى بعد تغير النظام.

وأثر الحركات الإسلامية على بعضها البعض شىء مشهود. يدل على وحدة فكر الأمة ومصدرها. فطالما تأثرت هذه الحركات بالأموات مثل ابن حنبل وابن تيمية وسيد قطب وبالأحياء، متطرفين منعهم ومعتدلين، محافظين وتقدميين، تقليديين ومجتهدين. ولا يستطيع نظام سياسى معاداة كل أطياف الفكر الإسلامى. فلو كان يظن أن المتطرفين خصومه فعليه الاعتماد على المعتدلين. وإذا ظن أن التقليديين والمحافظين أعداؤه فيعتمد على المجددين والتقدميين. فالحركة الإسلامية ليست نوعا واحدا ولا اتجاها واحدا. وقد أجادت النظم السياسية هذه اللعبة بالاعتماد على اليسار لضرب اليمين مرة إذا كان الخطر منه، وبالاعتماد على اليمين مرة أخرى لضرب اليسار إذا كان الخطر منه. وبالتالى يضعف الجناحان الرئيسيان فى الفكر السياسى لصالح القلب. ولا يعادى نظام سياسى الإسلام الديموقراطى الذى يؤمن بالتعددية الحزبية وبالانتخابات البرلمانية إلا إذا كان معاديا للديموقراطية والتعددية السياسية، مزورا للانتخابات لصالح الحزب الحاكم الأوحد أو ضد الفرق الضالة لصالح الفرقة الناجية. ولا يعادى نظام الإسلام الليبرالى الذى يعترف بحريات التعبير لكل الناس فالكل راد والكل مردود عليه إلا كان معاديا للحرية والليبرالية. يقوم على القهر والتسلط على المؤسسات السياسية الدستورية والتعليمية والثقافية والإعلامية. ولا يعادى الإسلام العقلانى المستنير الذى يدعو إلى الحوار العقلانى الهادئ إلا إذا كان معاديا للعقل لصالح الخرافة. وضد الاستنارة

لصالح الأسطورة مثل الحكم مدى الحياة والتوريث والزعامة فى التاريخ.

وقد يسمح النظام السياسى للمفكر الإسلامى بالدخول بعد طول انتظار منعا للإحراج المحلى والإقليمى والدولى، وكدليل على بعض الحريات العامة فى النظام وكرم شيخ القبيلة وأريحية كبير العائلة أو اختبار المفكر وحسن سلوكه ومدى اتصالاته. فعين الدولة فى كل مكان. وأجهزة أمنها وشرطتها السرية تحيط بالأماكن التى يتواجد بها الفكر لاستيفاء ملفه وكتابة التقارير عنه وعن نشاطه فى محيطه بعد أن استعصى شراؤه للعمل مع النظام ضد خصومه السياسيين. وقد يسمح نظام سياسى آخر بدخول الكتب ثم بدخول أصحابها طبقا للقاعدة الفقهية، اختيار أخف الضررين: تفجير العقول أم تفجير المبانى، استنارة العقول أم إشعال النار فى المؤسسات، حرية الفكر أم الفوضى العارمة، تغيير النظام أم هدم الدولة، الإصلاح التدريجى أم الثورة العارمة؟

وقد يمنع نظام ثالث المفكر من الدخول منذ البداية ورفض الرد حتى على طلب تأشيرة الدخول لحضوره ندوة أو لقاء أو مؤتمر علمى عقابا له على مواقفه ومنعا لتأثيره فى عدة قضايا اختارت الدولة أحد الحلول التى تتفق مع الهيمنة والسيطرة، واستبعدت كل الحلول الأخرى التى تقوم على حرية الشعوب وحق تقرير المصير. ففى عام ١٩٤٨ خلقت بريطانيا ثلاث مشاكل طبقا لسياسة "فرق تسد" فى فلسطين بتقسيمها، وفى جنوب أفريقيا بتأييد الحكم العنصرى الأبيض للأقلية ضد الأغلبية الأفريقية، وفى الهند بتقسيمها إلى الهند وباكستان وخلق منطقة توتر بينهما فى كشمير التى من المفروض أن تنضم إلى باكستان طبقا لقرار الأمم المتحدة، الأغلبية الهندوسية فى الهند والأغلبية الإسلامية فى باكستان. وكانت الأغلبية فى كشمير إسلامية ومع ذلك ضمتها الهند لثرواتها الطبيعية وموقعها الاستراتيجى. ورفضت كل قرارات الأمم المتحدة الخاصة بحق تقرير

المصير. ورفضت إجراء استفتاء عام فى كشمير لمعرفة رأى شعبها إذا أراد الانضمام إلى الهند أو إلى باكستان أو الاستقلال التام عن الجارتين. وماذا يضير الهند فى استقلال كشمير وضم ما يقرب من ثمانين مليونا من المسلمين وقد فاق سكانها المليار، وهى أكبر دولة من حيث تعداد السكان بعد الصين وتزيد نسبة المسلمين فى الهند إلى الضعف، وتضع قنبلة سكانية موقوتة قد تنفجر فى المستقبل خاصة وأن النزاع الطائفى بين الهندوس والمسلمين لم يتوقف بعد؟ وماذا عن الهند ونظامها الديموقراطى الذى تفخر به ومن مآثر بريطانيا العريقة فى الديموقراطية؟ انتخاباتها الحرة مشهود لها. وهى دليل على أن الديموقراطية ليست ميراثا غربيا فقط بل هو تجربة أسيوية أيضا بدليل الهند. وهل تطبق الهند المعيار المزدوج الذى طالما كان نقدا رئيسيا للديموقراطية الغربية، الديموقراطية فى الهند واحتلال كشمير ورفض سؤال أهلها عن مستقبلهم وحقهم فى تقرير المصير؟

لقد كان حق تقرير المصير من مكتسبات حركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث، والهند جزء منه. وأصبح قراراً من قرارات الأمم المتحدة. وتم إعلانه فى الجزائر فى ١٩٧٣ فى "الإعلان العالمى لحقوق الشعوب" فى مقابل "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان". وماذا عن تاريخ الهند ونضالها منذ غاندى ونهرو لحق تقرير المصير؟ هل تتكرر مأساة الاستقلال الوطنى مرة ثانية فى كشمير بعد أن بدأت فى حيدر أباد- الدكن فى جنوب وسط الهند التى كانت الأغلبية فيها مسلمة ثم ضمتها الهند عنوة باسم وحدة الدولة واتصالها؟ وكشمير متصلة مع باكستان ومع ذلك ضمتها الهند عنوة كما فعلت فى الدكن. وماذا عن صداقة غاندى وسعد زغلول، ونهرو وعبد الناصر، وباندونج ويلجراد؟ وأيهما أفضل كشمير صديقة للهند، وباكستان جارة للهند أم جارتان عدوتان وحربا طاحنة بين المقاومة فى كشمير وتأييد شعب باكستان لها ودماء الشهداء تسيل من الطرفين؟

إن الهند وسط العالم الإسلامى. لم تنعم بوحدتها إلا أثناء الحكم الإسلامى. وإمبراطوريتها إمبراطورية المغول، من عمل المسلمين، وآثارها، تاج محل، من فن المسلمين. وثقافتها وعلمها وحضارتها من آثار المسلمين. وموقعها الجغرافى داخل المحيط الإسلامى غربا فى إيران وشرقا فى ماليزيا وأندونيسيا وشمالا فى أفغانستان وأواسط آسيا وجنوبا فى بحر العرب. وأى سياسة تقوم على الجغرافيا والتاريخ تجعل الهند صديقة العرب والمسلمين وليست صديقة لإسرائيل. تلك كانت سياستها فى الخمسينيات والستينيات أثناء حركات التحرر الوطنى. يكفيها ما يحدث فى سيريلانكا والصراع الطائفى هناك. وإذا كانت الهند تخشى من السلاح النووى الباكستانى فالأولى التحالف مع دول الجوار ونزع أى فتيل للتوتر. ولا تخاف الهند من السلاح النووى الإسرائيلى وبها مائة مليون من المسلمين قادرون على الزحف على القدس لتحرير المسجد الأقصى. وآلاف الهنود المهاجرين فى دول الخليج يسعون للرزق ويعيلون الملايين من فقراء الهنود. مصالح الهند مع العرب والمسلمين. والسلام مع جيرانها أكسب لها من الحرب. يكفيها أنها فصلت باكستان الشرقية عن الغربية فى ١٩٧١ بالحرب لإضعاف جارتها. وبالهند أكثر من أربعمائة قومية وتُهدد بالتقسيم للقضاء على وحدتها وقوتها بعد تفتيت يوغوسلافيا وتقسيم الوطن العربى بداية بالعراق ثم السودان ثم الخليج ثم المغرب العربى.

إن تجمع الصين والهند والعرب وأندونيسيا وباكستان يمثل نصف سكان العالم فى عالم التكتلات. وإذا انتهى المنع من الدخول فى بلدين إسلاميين فالأولى إلغاء المنع من الدخول فى الهند. فكشمير الإسلامية هو رأى مليار وربع من المسلمين. وإذا انتهى النظام العنصرى من جنوب أفريقيا بقت فلسطين وكشمير. ويعترف العالم كله بحق تقرير المصير للفلسطينيين وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة. فماذا عن كشمير؟

٩- بيع نفس عربية

على وزن "بيع نفس بشرية" الرواية الشهيرة عن الاستغلال الجنسى للخادمات الفلبينيات فى الخليج فى المشرق العربى، شرق مصر، يحدث أيضا "بيع نفس عربية" فى جريمة حقن المرضات البلغاريات مع طبيبين فلسطينى وبلغارى، حوالى خمسمائة طفل ليبى، بمرض "الإيدز" فى المغرب العربى، غرب مصر. والفرق أنه فى الشرق الشارى عربى والبضاعة أسيوية. وفى المغرب البائع عربى والبضاعة عربية.

ليس هذا تحليلا لأحكام القضاء الذى يبدو أنه قام بدوره، ولا تدخلا فى شئون الدول وسياساتها المتقلبة فذاك ما يخص شعوبها ومثقفوها الوطنيون ومفكروها الأحرار. بل الأمر يتعلق بما كثر الحديث عنه منذ أكثر من عشر سنوات باسم "حوار الحضارات" أو حوار الثقافات، أو حوار "الشمال والجنوب" أو "أوروبا والإسلام". وهو أيضا دفاع عن الثقافة العربية واحترام الحياة فيها من أجل تغيير الصورة النمطية فى الغرب عن العرب، أنهم أجساد بلا أرواح، أبدان بلا عقول، قبائل وطوائف بلا إنسان. قد يهزم العرب عسكريا. وقد يعجزون سياسيا، ولكنهم يظلوا حاملين لثقافة أثرت فى ثقافات العالم، ومازالت موضع عزة وافتخار.

وإن من مظاهر الأزمة العربية الراهنة اختلاط كل شىء بكل شىء، النصر والهزيمة، المقاومة والإرهاب، الواقعية والاستسلام، الشرعية والصورية، الحق

(*) الاتحاد: ٤ أغسطس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٥ أغسطس ٢٠٠٧.

والباطل، الاستقلال والتبعية، الاستقرار والطوارئ، الأمن والشرطة، القيمة والتجارة، المبدأ والسياسة. وكانت أحد مقومات النهضة توضيح هذا الخلط، والكشف عما يدور في الواقع من تداخل واختلاط الحابل بالنابل حتى لم يعد يعرف العربي من الصديق ومن العدو، أين المنفعة وأين الضرر؟

إن ما حدث من حقن أطفال بمرض "الإيدز" من ممرضات بلغاريات وطبيب بلغاري ليس فقط جريمة في حق الأطفال أو في حق البشرية بل هي جريمة ثقافية في رؤية الأوروبيين في شمال البحر الأبيض المتوسط لغيرهم خاصة العرب والمسلمين في جنوبه، استمرارا لرؤيتهم للأتراك في العصر العثماني، القسوة والتعصب والقهر. ومازالت الرؤية مستمرة حتى الآن في الإرهاب والعنف والتخلف والتسلط وخرق حقوق الإنسان والمرأة والطفل والشيخ والأقليات. وطالما استمرت العنصرية العرقية والمركزية الثقافية داء دفينا في الوعي الغربي، سيظل مستعمرا غيره، كارها ثقافته، نافيا وجوده الجسدي والحضاري. لذلك يناصب الغرب الإسلام العداء في أوروبا الشرقية. أوروبا مسلمة! ويعارض دخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بذرائع واهية اقتصادية وسياسية والحقيقة برفض حضاري لثقافة مغايرة وقد كانت يوما يسيطر على أوروبا الشرقية على مدى خمسة قرون. وهو موقف عام يظهر في نتوءات فاقعة بين الحين والآخر خاصة في اليمين الأوروبي، برلسكوني وفالاتشي في إيطاليا، برنار لويس في إنجلترا وأمريكا، لوبين في فرنسا، بوش والمحافظون الجدد في الولايات المتحدة. لا فرق في ذلك بين ممرض وطبيب، بين ثقافة العامة وثقافة الخاصة اللتين تجمعهما الثقافة الإعلامية الحديثة والإرث التاريخي الطويل. وقد يجمع البلغاري والفلسطيني هم الرزق، ولقمة العيش، وجمع المال، والعمل في بلاد النفط، والتضحية بكل ما هو إنساني في سبيل المال. وقد تعود الفلسطيني المهاجر على ذلك، غدرا بأخيه من أجل سوق العمل بعد أن هجر

وطنه، وأخذ جنسية بديلة تحميه من غائلة العرب وهوس الحاضر وذاكرة التاريخ.

الآخر شيء للبيع والشراء كما بيع الرقيق الأفريقي في أسواق الولايات المتحدة. منذ خمسة قرون ومازال مستمرا حتى الآن. استضعاف طفل من ثقافة تفخر بأنها هي التي صاغت "الإعلان العالمي لحقوق الطفل". تهبه الموت كما وهبته قوى الاستعمار لشعوب بأكملها استئصالا في أمريكا واستراليا، واستعبادا لكل الشعوب التاريخية القديمة في كل أرجاء أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، والوسيلة الحقن بفيروس "الإيدز" الذي لا علاج له حتى يصبح الموت قدرا محققا لخمسمائة طفل، جيلا بأكمله يورث من بقي منهم على قيد الحياة المرض لجيل لاحق. وينتشر المرض بوسائل أخرى من الأوروبيين الشاذين جنسيا عن طريق اتصالهم بالأطفال وإغراء الفقراء منهم بالمال والحلوى أو بالمبيدات المسرطنة وهو ما تفعله إسرائيل في الزراعة المصرية.

ودون افتراض أن يكون القضاء تمثيلية احتراما لسلطته واستقلاله فقد أحسن القضاة صنعا بإصدار حكم الإعدام على الممرضات البلغاريات والطبيبين البلغاري والفلسطيني بدرجتيه، الأولى والثانية، العادي والاستئناف، تطبيقا للقصاص. فمن قتل نفسا واحدة فكأنما قتل الناس جميعا في كل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية. ولا سلطة أعلى من سلطة القضاء. إلا أن لجنة أخرى موجهة سياسيا تعمل الإرادة السياسية من ورائها، والقضاء مجرد غطاء شرعي، خففت الحكم إلى السجن المؤبد، خمسة وعشرين عاما. ولو أن ذلك قد تم في بلد لا يسن به قانون القصاص مثل بعض البلاد الأوروبية التي تعتبر "الإعدام" ليس حلا، ولا يحيي الموتى، وخرقا لحقوق الإنسان، فالحياة حق طبيعي، ولا يمكن تصحيح خطأ وهو القتل بخطأ آخر وهو الإعدام، فمجموع الخطأين لا يكوّن صوابا، لكان الأمر مفهوما، ولكن إلغاء عقوبة الإعدام تم في ثقافة بها القصاص ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾.

وقد توفى ما يقرب من خمسين طفلا. بل فى نظام سياسى يبيح التصفية الجسدية لخصومه السياسيين. واكتملت التمثيلية بدخول أهالى الأطفال الشهداء على الخطأ، وقيامهم بمظاهرات تطالب بالقصاص. وعبروا عن فرحتهم بإعدام القتلة. وهم أنفسهم الذين عبروا عن الفرحة بقبول التعويض وإنهاء الموضوع سلميا بعد تدخل مؤسسة خيرية على الخط. تقوم بدور الوسيط بين الضحية والجلاد لتعظيم دورها، واستعدادا للتوريث على الصعيدين الداخلى والخارجى.

كانت قيمة صفقة بيع النفس العربية مليون دولار لكل طفل ومجموعها أربعمائة وخمسين مليونا لخمسين طفلا وهو أقل من ضخة نفط فى يوم واحد. وفرحت الأسرة ببيع طفلها. تنعم برغد العيش بثمن دمه. وفرحت أسرة أخرى بعلاج طفلها على نفقة القاتل مدى الحياة. وكسبت الدولة تحديث مستشفياتها بأطباء أوروبيين وكأن الطب العربى المشهود له قديما وحديثا عاجز عن القيام بواجبه. ونجح النظام السياسى فى فك الحصار عنه، وشطبه من قائمة الإرهاب، وزيادة التبادل التجارى بينه وبين الاتحاد الأوروبى، وتسهيلات تأشيرات الدخول لكل من الطرفين لدى الطرف الآخر، وزيادة البعثات الطلابية للدراسة فى الغرب، وعودة العلاقات مع الغرب إلى مستواها الطبيعى، بدلا من تكرار غزوها فى ١٩٨٦ من القوات الأمريكية، وبدلا من الترصد لباقى القادة العرب أسوة بصدام وحبل المشنقة حول عنق رئيس عربى. وكلها فى النهاية وعود قد لا تتحقق بمجرد الإفراج عن الرعايا البلغار.

وكسبت فرنسا، ورئيسها الجديد فى حاجة إلى دور يلعبه فى الحوار الوطنى بين الخصماء فى الوطن فى لبنان، وفى الإفراج عن الممرضات البلغاريات ورفيقهن، وفرنسا هى التى صاغت "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والمواطن" أثناء الثورة الفرنسية. والسيدة حرمه تقوم بدور السيدة الأولى فى رعاية الشئون

الاجتماعية والخدمات الإنسانية والمشروعات الثقافية كما هو الحال فى معظم البلدان العربية. وفرنسا هى التى رفضت حتى الآن الاعتذار للجزائر عن جرائم الحقبة الاستعمارية الفرنسية والمليون شهيد. وهى التى تسعى إلى إقامة محكمة دولية لقتلة رفيق الحريرى وتترك عشرات الآلاف من السجناء الفلسطينيين فى سجون إسرائيل. ودخلت دولة عربية صغرى على الخط لتساعد دولة عظمى وتقوم بدور مصر المستمر فى لم الشمل العربى محليا ودوليا.

ووصل الجناة الأبطال إلى صوفيا واستقبلوا بالورود والرياحين والدموع الإنسانية تنهمر من عيون القادمين والمستقبلين وكأنهم أبطال عادوا منتصرين فى الحرب ضد العرب. وفى نفس اللحظة وبدلا من أن يقضوا الحكم المؤبد بسجون وطن الشهداء وهو لا تنقصه السجون ولا المسجونين ولا السجانين، وبدلا من أن يقضوا المدة فى أوطانهم وقد عرفت يوما بأنها أيضا تغص بالمسجونين السياسيين واحتراما لأحكام القضاء فإن الرئيس البلغارى أصدر حكما بالعفو عن القتلة، فيضيع دم الأطفال هباء. وتنتهى التمثيلية التى دامت تسع سنوات. فالغرب هو الغرب، والشرق هو الشرق. أوروبا هى أوروبا، والعرب هم العرب، تأكيدا على الصور النمطية التى تراكمت عبر التاريخ ومازالت مستمرة فى الحاضر والمستقبل.

ويظهر المعيار المزدوج الشهير فى سلوك الغرب. يقيم الدنيا ويقعدها من أجل الممرضات البلغار والطبيب البلغارى وآلاف المعتقلين السياسيين فى سجون إسرائيل، ومئات الشهداء من القصف الإسرائيلى، وملايين الأطفال العراقيين استشهدوا من جراء الحصار والقصف الأمريكى دون أن يحرك الغرب ساكنا، لا رئيس الجمهورية الفرنسية ولا أحدا من المؤسسات الخيرية العربية أو الغربية، ولا دولة عربية صغرى أم كبرى. ولو قامت ممرضات وأطباء عرب بالقيام بنفس الجريمة التى قامت بها الممرضات البلغار فى أطفال غربيين أو إسرائيليين انتقاما

من حقبة استعمارية مازالت مستمرة لقامت الدنيا وقعدت ضد المجرمين العرب وثقافتهم اللاإنسانية. وقد غزت إسرائيل دولة بأكملها، لبنان، لتحرير ستة من أسرى الحرب الإسرائيليين ولديها عشرة آلاف من السجناء الفلسطينيين.

دولة تبيع مواطنيها، وتتاجر بأطفالها لتحمى نظامها وهى دولة مبادئ وأيديولوجيات قومية أولا وأفريقية ثانيا، اشتراكية أولا وتعطى إشارات بالخصخصة والعولمة والرأسمالية ثانيا أسوة بغيرها. ولماذا تختلف الشقيقة الصغرى عن الشقيقة الكبرى؟ وبيع نفس عربية بالعشرات أقل بكثير من بيوع نفس عربية أو إسلامية بالآلاف فى فلسطين والعراق والشيشان وكشمير والسودان وتشاد ومالى أو فى باكستان.

قد يغضب الإخوة الليبيون، ولكن ليبيا بالنسبة لجيلى هى السنوسية وعمر المختار ليبيا ثورة الفاتح فى ١٩٦٩ لا الثورة المضادة، ليبيا القومية العربية لا المهادنة للغرب، ليبيا المبدأ لا المساومة، ليبيا التاريخ لا خارج التاريخ.

Orbelkanal.com

١٠- السلاح أم الحوار؟

إن حالة الاستقطاب الشديد لا تميز فقط الوطن العربى بين إسلاميين وعلمانيين فى فلسطين بين حماس وفتح، وفى الجزائر بين جبهة الإنقاذ الوطنى والدولة، وفى الصومال بين المحاكم الشرعية والنظام السياسى المستعاد باسم الدولة، وفى السودان بين الشمال والجنوب، وبين الشمال والغرب، وفى اليمن بين الحوثيين والدولة، بل أيضا فى العالم الإسلامى خاصة فى باكستان كما دل على ذلك المواجهة الأخيرة بين قوات الجيش وطلاب الجامع الأحمر فى إسلام أباد هذا الشهر. وتسيل دماء العرب والمسلمين كل يوم، مقاتلين وأبرياء، دينيين ومدنيين حتى أصبح الدم العربى الإسلامى رخيصا يسفكه أعداء الأمة فى فلسطين والعراق والشيشان وكشمير. وخطورة الاستقطاب هو الوقوع فى ثنائية متعارضة بين طرفين، يستبعد كل منهما الآخر، ثنائية الحق والباطل، والصواب والخطأ، والإيمان والكفر. لا يبقى طرف إلا بالقضاء على الآخر، فى الفكر وفى الواقع، فى الذهن وفى السلطة. فالفرقة الناجية واحدة بالرغم من تعدد الفرق وأن اختلاف الأئمة رحمة بينهم، وأهمية التعددية الفكرية والسياسية.

ولكل فريق من المتخاصمين المتحاربين من الإخوة الأعداء أخطاؤه. ومجموع الخطأين لا يكوّن صوابا. والاختيار بينهما يزيد من كب الزيت على النار، وشق الصف الوطنى، وسفك الدماء، وشبح الحرب الأهلية. وهو منطق "إما ... أو" الذى

(*) الاتحاد: ١١ أغسطس ٢٠٠٧، الدستور: ٩ أغسطس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٢ أغسطس ٢٠٠٧.

ساد معظم الديانات الأسيوية، المانوية والهندوكية والزرادشتية ودين الصين القديم قبل كونفوشيوس. وأصّلتها الغنوصية التى دخلت معظم ديانات الوحى خاصة المسيحية فى التقابل بين ملكوت السماوات وملكوت الأرض ومقتضيات الروح ومتطلبات البدن، وفى الإسلام فى تقابل مشابه بين الدنيا والآخرة، بين الملاك والشيطان.

والتعارض بين الفريقين ليس فقط كما يبدو فى الظاهر صراع سلطة بل هو صراع ثقافى بين رؤيتين متباينتين، "إما ... أو"، بين منهجين وأسلوبين فى الحياة، لا حل له إلا بالحوار والتكامل، وتصحيح أخطاء كل فريق بميزات الفريق الآخر من أجل الوصول إلى الطريق الثالث الذى اشتقته تركيا ممثلة فى حزب العدالة والتنمية، وماليزيا ممثلة فى حزب "الآمنو". وهو ما تسعى إليه جميع حركات التجديد والإصلاح فى المغرب فى حزب العدالة والتنمية وليس بإقصاء الإسلاميين كما هو الحال فى مصر وليبيا وتونس والجزائر أو بإقصاء العلمانيين كما هو الحال فى السعودية والإمارات وعُمان. ومازال الوضع متوترا فى اليمن والكويت والأردن.

ويتمثل خطأ الإسلاميين فى الآتى:

١- جعل المسجد دولة داخل دولة، وسلطة داخل سلطة، وحكومة داخل حكومة، وهو ما لا يقبله أى نظام سياسى، دكتاتورى أو ديموقراطى، رأسمالى أو اشتراكى. صحيح أن هناك سلطات عديدة داخل الدول قد تتناحر فيما بينها، بين السلطة القضائية من ناحية والسلطتين التشريعية والتنفيذية من ناحية أخرى كما هو الحال فى مصر. وقد تكون هناك سلطتان فى الدولة، السلطة العسكرية والسلطة المدنية كما هو الحال فى تركيا، ولكن هذه الازدواجية فى السلطة لا تصل إلى حد الصراع العلنى المفتوح وشق الصف الوطنى.

٢- صحيح أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب شرعى على العلماء. فالدين النصيحة. وهى الحسبة، الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية كما قرر ابن تيمية وابن القيم. وهى وظيفة مشروطة بأن تكون من العلماء وليس من الطلاب، متفق عليها بينهم وليس عليها اختلاف، وبالحسنى وليس بالعنف، ودون أن تأتى بمنكر أعظم من المنكر الذى تنهى عنه، ودون ملء المسجد بالسلاح، ووضع النساء والأطفال والشيوخ فى أتون المعركة. ومن الأفضل أن يكون النصح جماعيا **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** وليس نصحا فرديا أو لمجموعة صغيرة مذهبية أو عرقية مثل "جبهة علماء المسلمين". لذلك قُدم الإجماع على الاجتهاد فى ترتيب مصادر الشرع الأربعة. وهناك عشرات الآلاف من المساجد مثل "المسجد الأحمر". والحركة الإسلامية ممثلة فى البرلمان. وكان يمكن القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من خلاله وبالوسائل الديموقراطية الشرعية، والكتابة بالصحف، وحشد الرأى العام، وليس بالسلاح بصرف النظر عن البادئ بالعنف. لذلك اقترح بعض علماء الأمة ومنهم الإمام الخمينى وكرد فعل على استعمال العنف إعادة ترتيب الوسائل الثلاثة للتغيير فى الحديث الشهير، بالقلب ثم باللسان ثم باليد. وهى الطرق المتبعة فى مقاومة الحاكم الظالم، بالنصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى خطب المساجد أولا. فإن لم يرعوا الحاكم يتم اللجوء إلى قاضى القضاة الذى يعينه الحاكم ولكنه لا يستطيع أن يعزله حرصا على استقلاله. فإن لم يسمع لحكم القضاء ثار الناس عليه بقيادة العلماء وقاضى القضاة لعزله. ولا يمكن اختزال المراحل التدريجية الثلاث فى مرحلة واحدة وهى المرحلة الأخيرة، والقفز فوق المرحلتين الأولى والثانية.

٣- وفى المجتمعات الإسلامية فى جنوب شرق آسيا تتنوع التركيبة السكانية والقبلية، وتتعدد المعتقدات الدينية والطوائف والمذاهب. فهناك البلوشى

والباشتون، والسنة والشيعة، والهنود والصينيون والملاويون. وطبقا للشريعة الإسلامية، كل طائفة تحكم بشريعتها مثل أهل الذمة، النصارى واليهود وأضاف الفقهاء المجوس والصابئة بل وعبدة الأوثان. وإذا أراق المسلم خمر الذمى وجبت عليه الدية أو التعويض. فلا تطبق الشريعة الإسلامية إلا على المسلمين. والحفاظ على وحدة الأوطان، مثل السودان، مقدم على تطبيق الشريعة الإسلامية على الجنوب. ومن ثم يخطئ من يمارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا ما طبقه على غير المسلمين، مثل الصينيين الذين يقومون بالحمامات التركية والتدليك أو ما يسمى بالحمام التركى المنتشر فى جنوب شرق آسيا. واحترام العادات والتقاليد والأعراف لغير المسلمين جزء من الشريعة الإسلامية "من آذى ذميا فقد أذانى".

٤- والخطورة أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مجرد ذريعة للصراع على السلطة، وممارسة المعارضة السياسية. والمسجد ليس مكانها. المسجد للحوار وليس للصراع، للنصيحة **﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾** وليس للقتال. المسجد سلطة معنوية وليس سلطة سياسية، حامى للقيم الإسلامية وليس منفذا لها بالقوة كما يفعل المطوفون بالعصى لستر الأعقاب بعد النظر إلى السيقان. الصراع السياسى مكانه صناديق الاقتراع وأجهزة الإعلام والانتخابات الديموقراطية.

ويخطئ الفريق الآخر، الدولة بأجهزتها، الرياسة والجيش والشرطة وكل أجهزة الأمن للآتى:

١- عدم الاستماع للنصيحة، والاستجابة لواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومواجهة الرأى بالرأى، والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، وليس بالسلاح والحصار والمواجهة والقتل ورفض الحوار والوساطة وإظهار حق الدولة على حساب قوة المجتمع. فالمسجد فى الإسلام له مكانته ودوره التعليمى والرقابى على المجتمع. ومواجهة الدولة مع المسجد هو السيطرة الكاملة للدولة على المجتمع المدنى.

٢- استعمال الجيش فى المعارك الداخلية مع الشرطة وأجهزة الأمن. وظيفة الجيش الدفاع عن أمن البلاد ضد المخاطر الخارجية وليس الدفاع عن النظام السياسى ضد معارضيه. الجيش مؤسسة مستقلة فى البلاد، وليست أداة للنظام السياسى لاستتباب الأمن وإقرار النظام. فإذا ما تحول الجيش عن وظيفته وأصبح أداة قمع فى الداخل، قتل الأب ابنه والابن أبيه، والأخ أخاه وأخته فى ثقافة قبلية مازال الثأر فيها ممارسة شعبية. فيُقتل الأبرياء من الطرفين. وكلاهما ضحايا النظام السياسى الذى يجعل المواطن يقتل المواطن، ويؤجج الاقتتال بين المواطنين. وقد يصل الأمر إلى الحرب الأهلية عندما ينقسم الشعب، كل قسم مع أحد الفريقين المتحاربين.

٣- جعل رئيس الدولة نفسه رئيسا للسلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية. فهو رئيس الجيش، ورئيس الشرطة، ورئيس أجهزة الأمن، وهو الذى يشرع ويسمح بمرور الطائرات الأمريكية فوق أراضيها للعدوان على أفغانستان وضربها من بحارها كما تفعل بعض البلدان العربية. له سلطات مطلقة فى الحرب والسلم بالرغم من البرلمان المنتخب وممثلى الشعب. يتبع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وما تمليه عليه بحجة محاربة الإرهاب، ومقاومة طالبان باكستان، والوقوف فى مواجهة الحركات الإسلامية. وهو أعلى من السلطة القضائية بطرده رئيس المحكمة العليا ثم إعادته لتخفيف التوتر بينه وبين المعارضة، وكسب ود الليبراليين ضد الإسلاميين.

٤- التحرش بالقبائل على الحدود الطويلة الممتدة بين باكستان وأفغانستان. وهى قبائل واحدة على الحدود المصطنعة التى وضعها الاستعمار. وقد كانت القبائل عبر تاريخها هى الجانب المعنوى فى حياة الأفغان والباكستانيين. ومعاداة الداخل وموالاة الخارج. والإسلام هو القوة السياسية الأولى فى باكستان، وتيار شعبى عارم.

لا يعاديه أحد بل يحاوره بجوار التيارات الليبرالية النخبوية الضعيفة. كان يمكن تكوين جبهة وطنية عريضة حول حقوق شعب كشمير، والنووى الباكستانى فى مواجهة الخطر النووى الإسرائيلى، وتحييد النووى الهندى، وتكوين كومنولث إسلامى أسيوى إقليمى يضم كل الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى مع إيران وماليزيا وأندونيسيا لمواجهة قوى الاستعمار الجديد والهيمنة الأمريكية. الحوار مع الشعب وليس المواجهة معه، وفى الداخل ضد الخارج **﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾**، دفاعا عن التعددية السياسية والحوار الوطنى للوصول إلى برنامج وطنى عام يوافق عليه الجميع.

الحوار وليس السلاح هو الحل بين الدولة وخصومها، بين النظام السياسى والحركات الإسلامية من أجل إيجاد طريق ثالث يجمع بين القديم والجديد، بين الدولة والشعب، بين الجيش والأمة حتى تتحول الدولة والنظام السياسى من القهر إلى الحرية وحتى تتحول الحركات الإسلامية من المحافظة إلى التجديد. وطريق تركيا وماليزيا وأندونيسيا وموريتانيا ممهد للجميع.

١١- الأقوال والأفعال

تاريخ القضية الفلسطينية هو تاريخ الأقوال والأفعال. الأقوال من العرب عن العدوان والاستيطان الإسرائيليين والتأييد الأمريكى المطلق للكيان الصهيونى. أما الأفعال فهو الاعتراف والمفاوضة والصلح "وداوانى بالتى كانت هى الداء". والأفعال من العدو الإسرائيلى، العدوان اليومى منذ نشأته حتى احتلال كل فلسطين وإقامة الجدار العازل، أما الأقوال فحديث عن السلام والأمن وإقامة دولتين تعيشان جنبا إلى جنب، والتفاوض مع المعتدلين واستبعاد الإرهابيين.

فمنذ النكبة فى ١٩٤٨ ورفض العرب قرار التقسيم بالفعل، يستمر العرب فى الرفض القولى. وتستمر إسرائيل فى الاستيلاء على ما يتجاوز التقسيم فى النقب حتى قرية أم الرشراش التى أصبحت إيلات، منفذ إسرائيل الوحيد على البحر الأحمر، وطريق التجارة البحرية إلى آسيا عبر المضايق العربية فى تيران وباب والمندب وتهديد الأمن القومى العربى فى البحر الأحمر الذى كان إلى عهد قريب بحيرة عربية بين مصر والأردن والسعودية واليمن والسودان وجيبوتى.

ومنذ انسحاب إسرائيل من شبه جزيرة سيناء بعد العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦ واحتفال مصر بعيد تحرير سيناء إلا أن قوات الأمم المتحدة مازالت موجودة فى مضايق تيران. نحتفل بالقول وإسرائيل تحتل بالفعل. وبعد عدوان

(*) الاتحاد: ٢٥ أغسطس ٢٠٠٧، الدستور: ٢٢ أغسطس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٦ أغسطس ٢٠٠٧.

١٩٦٧ الذى كان سببه الرئيسى سحب قوات الأمم المتحدة من المضايق وغلق مدخل الخليج، قبلنا قرارى ٢٤٢، وقرار ٣٣٨ الداعيين لانسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة، وإسرائيل تبنى المستوطنات وتبتلع أراضى غزة والضفة الغربية. وقبل العرب مشروع روجرز ورفعوا شعار "إزالة آثار العدوان" وليس تحرير فلسطين، كل فلسطين من البحر إلى النهر، وإسرائيل تستوطن وتضم الأراضى المحتلة.

وفى حرب تشرين- أكتوبر ١٩٧٣ تحول العرب إلى الفعل الصامت فأنجزوا العبور العظيم ثم سرعان ما تحول إلى أقوال "حرب أكتوبر آخر الحروب"، "السلام خيار استراتيجى". وفى نفس الوقت الذى تقوم فيه إسرائيل بالفعل بالتركيز على بناء المستوطنات وتوسيعها وإحضار ما يقرب من مليون يهودى روسى مهاجر فى موجة ثانية بعد الموجة الأولى فى ١٩٤٨ من اليهود العرب، تعترف مصر بإسرائيل، وتفاوض المحتل، وتصالحه فى كامب ديفيد الأولى فى ١٩٧٨، وفى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية فى ١٩٧٩. وندعى أننا نعمل على تحرير باقى الأراضى المحتلة فى فلسطين وسوريا بالقول، ونتبادل السفراء مع إسرائيل وتطبع الحكومة المصرية معها سرا بالفعل.

وبعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية وفرض المقاومة الفلسطينية وجودها على الساحة السياسية بدأت الولايات المتحدة تبيع الأقوال: خارطة الطريق، الدولتان، الانسحاب من معظم الأراضى المحتلة، القدس الشرقية. وقد عبرت ورقة كلينتون عن ذلك أولا بعد كامب ديفيد الثانية بين منظمة التحرير وإسرائيل، بعد الاعتراف المتبادل بينهما. ومن ذلك الوقت يرفض العرب قولا كل مشاريع التسوية المقدمة من إسرائيل، غزة أولا، أريحا أولا، الخيار الأردنى، ومن الولايات المتحدة الأمريكية يقبلون خارطة الطريق أخيرا التى تبيع الأقوال والآمال.

أما الأفعال فالتأييد المطلق لإسرائيل للغزو والعدوان والقتل والتدمير بدعوى دفاع إسرائيل عن حقها فى الوجود والأمن ضد الإرهاب الفلسطينى والدولى الإسلامى ممثلا فى تنظيم القاعدة. وأخيرا جاءت "مبادرة السلام العربية" لتؤكد مقررات مدريد وأوسلو، الأرض فى مقابل السلام، الانسحاب الكامل من الأراضى العربية المحتلة فى مقابل التطبيع الكامل مع إسرائيل. وأعلنتها السعودية بما لها من ثقل اقتصادى ودينى. وإسرائيل بالأفعال ترفض وتعتدى وتحتل وتغتال وتدمر وتقتل وتطارد.

والعرب يرفضون العدوان الإسرائيلى المتجدد بالقول ويتصالحون معها ويطبعون ويتاجرون وينسقون أمنيا معها. ويدينون العرب تأييد الولايات المتحدة إسرائيل بالمال والسلاح وفى المنظمات الدولية. وفى نفس الوقت تتبع النظم العربية سياسات الولايات المتحدة، ويأتمرون بمؤتمراتها ضد الإرهاب، وتجميع المعتدلين ضد المتطرفين. ويؤيدون الغزو الأمريكى للعراق وأفغانستان، ويعادون إيران، ملكيون أكثر من الملك.

ويتكرر الأمر ذاته فى مؤتمر الخريف القادم، يبيعون الأقوال على حذر الدولة الفلسطينية الموعودة، وبالأفعال تعقد أمريكا مع إسرائيل صفقة بثلاثين مليار دولار على مدى عشر سنوات قادمة، معونات عسكرية واقتصادية. وتحاصر حماس وترفض التعاون معها بالرغم من أنها أتت إلى السلطة بانتخاب ديموقراطى شرعى. يأخذون باليمين ما يعطونه باليسار. وظيفة المؤتمر القادم مجرد اكتشاف آفاق للسلام، وضع مبادئ عامة وضعت من قبل فى مدريد وأوسلو، إيجاد إطار عام، عدم الدخول فى التفاصيل أو التعرض للقضايا الجوهرية، القدس واللاجئين والحدود وحق العودة. يقدمون الأقوال دون الأفعال. يبيعون لنا الترام بتعبير أحد الكتاب النابهين.

وإسرائيل تقبل على مضض فكرة المؤتمر الدولي. وهو ليس مؤتمرا بل لقاء لتفريغه من مضمونه الدولي الإلزامي. تتحدث عن السلام والتسوية وضرورة المفاوضات المباشرة، ولكنها لا تجد الشريك الفلسطيني. وإن وجدت فمن اختيارها، السلطة الوطنية الفلسطينية، ممثلة في رئيسها وليس الإرهابيين الذين يودون تدمير إسرائيل ولا يعترفون بوجودها. تتحدث عن الدولتين وتقيم جدار الفصل العنصري، وتوسع المستوطنات، وتعتدي يوميا على غزة، وتداهم المدن الفلسطينية، تهدم المنازل، وتغتال النشطاء، وتعتقل المطلوبين، وتضع مئات الحواجز في الضفة لتقطيع أوصالها ومنع الشعب الفلسطيني من التحرك على أرضه. وتستعد للحرب ضد سوريا وإيران ولبنان لإنهاء ما تبقى من مقاومة عربية وإسلامية لإرادتها وإرادة الولايات المتحدة الأمريكية.

وأحد أسباب هذا الخلف بين الأقوال والأفعال هو الموروث الثقافي. فالقول لدينا مكتف بذاته. والخطاب له أثر سحري، الخطاب الديني أو الخطاب السياسي. يفرج الكرب، ويخفف الهم، ويريح النفس، ويحل المشاكل، ويقضي الأزمات. واللغة العربية وسحر الكلمات يساعد على ذلك. وقد نبه القرآن العرب على ذلك وعاتبهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾**. ويصفهم بأنهم **﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾**. ويحكم على الأعراب بأنهم أهل كفر ونفاق ورياء.

وفي المقابل سيطرت البرجماتية على الفكر الغربي. وهي تعطي الأولوية للفعل على القول، والعمل على النظر. وصدق الفكر ليس في صدقه النظري المنطقي، اتفاق المقدمات مع النتائج بل في إمكانية تحقيقه العملي وأثره الفعلي في الواقع وبين الناس. شيء واحد يتم تحقيقه خير من عشرة أشياء يتم التنظير لها. وهو أقرب إلى الموقف الإسلامي في أولوية العمل على النظر **﴿وقل اعملوا﴾**، **﴿يا قوم اعملوا على**

مكانتكم إنى عامل﴾، ﴿أما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾.

قد تكون الأقوال دون الأفعال هى حيلة العاجز عن فعل شىء. فيتحرك عن طريق اللسان، ويناضل بالكلام، ويصول ويجول على مستوى الأقوال. وهو ما عرف باسم الخطاب السياسى العربى الذى يهدف إلى الاستهلاك المحلى وامتصاص غضب الجماهير. وهو امتداد للخطاب الدينى التقليدى "أسمع كلامك يعجبنى أشوف أفعالك أستعجب"، أو "خد من كلام الشيخ ولا تأخذ من أفعاله". أما القوى بالفعل القادر على فعل فلا يحتاج إلى قول. الفعل قوله. والصمت لغة لا يحسنها العرب. وقد وصل الأمر إلى حد اعتبار أحد المستشرقين العرب ظاهرة صوتية. والله متكلم مع أن كلام الله فعل ﴿كن فيكون﴾. والقرآن كلام ولكنه دعوة إلى الفعل ﴿وقل اعملوا﴾. وقد غير جوته أول آية فى إنجيل يوحنا "فى البدء كانت الكلمة" إلى "فى البدء كان الفعل".

فمتى تتغير بنية الثقافة العربية وتتحول من القول إلى الفعل، ومن الكلام إلى التحقيق، ومن اللغو إلى الصمت كما نظم الشاعر العربى:

والفدائى وحده يكتب الشعر ∴ وكل الذى كتبنا هراء؟

١٢- العصا

الحياة رموز. والدين والسياسة والثقافة رموز. والأشكال الأدبية كلها رموز. يعيش الإنسان فى عالم من الرموز. ومهمته فك الشفرة ومعرفة دلالات الرموز. ضاقت الحياة بالعبارة. فكلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة كما لاحظ النّفّرى. فتحولت إلى حروف، والحروف إلى أرقام حتى أصبحت الأرقام (الديجيتال) سمة العصر.

وتؤثر هذه الرموز فى اللاوعى الدينى والسياسى والثقافى وتنبثق منه. وتحليلها جزء من الأنثروبولوجيا الثقافية وسبر أغوار النفس. ولما كنا بعد عدة تجارب سياسية على مدى قرنين من الزمان منذ محمد على حتى عبد الناصر نحاول بناء الأوطان. وتعثرت محاولاتنا عدة مرات بتكالب الغرب على محمد على وإنهاء مشروعه، وتكالبه مرة ثانية، الاستعمار والصهيونية، للقضاء على عبد الناصر الذى أراد استئناف المشروع الأول، نهضة مصر من أجل القضاء على استقلال مصر وتفردها فى محيطها.

ومن ضمن هذه الرموز العلم الوطنى الذى يعكس بؤرة الحياة الدينية والجغرافية والسياسية. العلم الكورى بوسطه الدائرة المنقسمة إلى أنصاف دائرة، الرمز البوذى. والعلم السويسرى والبريطانى وسطه الصليب رمزا للمسيحية أو

(*) الاتحاد: ١ سبتمبر ٢٠٠٧، الدستور: ٣٠ أغسطس ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢ سبتمبر ٢٠٠٧.

الصليب المعقوف رمزا للنازية. والعلم التركى والمصرى قبل الثورة وسطه الهلال والنجوم رمزا للشهور العربية والانتماء الإسلامى. وقد يكون الرمز جغرافيا مثل شجرة الأرز فى علم لبنان، وورقة الشجر فى العلم الكندى. وقد يكون سياسيا مثل المطرقة والسندان فى العلم الروسى والصينى للدلالة على ثورة العمال والفلاحين. وقد يكون النجوم التى ترمز إلى الوحدات السياسية، الولايات، فى الدول الاتحادية مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو تجارب الوحدة فى الوطن العربى، الجمهورية العربية المتحدة، نجمتان، والوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق، ثلاثة نجوم. ومازال القوميون يأملون فى علم عربى وحد به اثنتان وعشرون نجمة.

وقد تغنى الألوان عن الرسوم والأشكال منذ الثورة الفرنسية فى العلم المثلث الألوان الشهير، الأحمر والأزرق والأبيض بالطول فى فرنسا، وبالعرض فى إيطاليا. وقد يضاف إليها الأسود علامة على العهد البائد فى ألمانيا. وقد تكون أرضيته حمراء إيثاراً للثورة على غيرها مثل العلم الصينى والروسى أو التحرر الوطنى مثل العلم المغربى. وقد تكون الأرضية خضراء رمزا للزراعة والأرض الخضراء فى تركيا ومصر قبل الثورة. وقد تجتمع عدة ألوان، الأسود رمزا للعهد البائد، والأحمر رمزا للثورة، والأبيض رمزا للسلام.

وقد توضع رموز القوة مثل السيف والصحراء والقبيلة فى علم المملكة العربية السعودية مع الكلام، عبقرية العرب التى تجلت فى الشعر ثم ورثها الوحى "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وفى الصراع السياسى يستبدل كلام بكلام مع تعدد الألوان الثلاثية وعليها "الله أكبر" توظيفا للدين فى الحرب كما هو الحال فى العلم العراقى بعد حربى الخليج الأولى والثانية استنهاضا للدين ضد إيران والخليج، ضد الشيعة والسنة على حد سواء. أما صقر قريش فهم مخفوض الجناحين وليس كالنسر الأمريكى الفارد الجناحين ليضم العالم كله شرقا وغربا. وعديد من البلدان الشمالية

والأمم المتحدة تستعمل اللون الأزرق رمزا على زرقة السماء وصفاء الروح وكتائب حفظ السلام "القبعات الزرق".

وقد يوضع فى بعض الشعارات السياسية المصحف مع السيفين دليلا على القوة المستندة إلى الكتاب. والخطورة أن تكون هناك قوة تستمد من الكتاب شرعيتها دون رقابة من الكتاب عليها. الخطورة أن يتحول الكتاب إلى مصدر للعقوبات باسم تطبيق الشريعة، والوقوع فى النصية والحرفية دون الواقع ومصالح الناس "واحتمى أبوك بالنصوص.. فدخل اللصوص". الخطورة أن يرمز الكتاب إلى التقليد والعلم المكتوب. فالعلم ليس فى كتاب بل فى قدرة العقل على فهم قوانين الطبيعة واستقراء قوانين التاريخ، قيام المجتمعات وسقوطها، العلم الطبيعى والعلم الإنسانى.

ومن الرموز المرئية طريقة تحية الرؤساء العرب والمسلمين الرجال مثل تقبيل الوجنتين والأنف والكتف واليدين طبقا لدرجة علو الرؤساء. وقد أثرت هذه العادة فى الرؤساء الأوروبيين فى استقبالهم للرؤساء العرب بتقبيل الوجنتين بالإضافة إلى عادتهم فى تقبيل الرؤساء الرجال للرئيسات النساء. فتقبيل الرجل للرجل حتى ولو كان رئيسا لها مغزى، وتقبيل الرجل للمرأة لها مغزى آخر. وكلاهما تقاليد اجتماعية تختلف من شعب إلى آخر.

والأخطر هو رمز "العصا"، عصى المارشالية التى كان يمسك بها رئيس الجمهورية الثانية فى مصر الصولجان الذى يجمع بين السلطة العسكرية والسلطة السياسية. ومثلها عصا رومل. وعصا أخرى يمسك بها الرئيس السودانى ويرفعها عاليا لتحية الشعب وهو تراث دينى قديم منذ عصا موسى التى كان يتكئ عليها نظرا لكبر سنه، ويهش بها على غنمه لأنه كان راعيا. هى العصا السحرية التى لقفت كل عصى السحرة، والقادرة على التغلب على كل القوى الأخرى حتى استقر

فى الاستعمال اليومى تعبير "العصا السحرية. ثم يتحول راعى الغنم إلى راعى الشعوب. واستمر ذلك فى سيف المعز، وكرباج الوالى وعصا الشرطى فى الطريق العام، والأمن المركزى ضد مظاهرات الطلاب والعمال، والناظر والمشرف فى المدرسة يهش بها الطلاب كما يفعل راعى الغنم. وهى عصا الفتوة كما صور نجيب محفوظ فى "التوت والنبوت" وفى ملحمة "الحرافيش". وهى عصا الأب ضد أبنائه وبناته من أجل "سُك على بناتك". وهى رمز العقاب والقرع والتأنيب والتهذيب والتربية. وقديما قال المتنبى:

لا تشترى العبد إلا والعصا معه ∴ إن العبيد لانجاس مناكيد

وقال شاعر آخر:

والعبد يقرع بالعصى ∴ والحر تكفيه الملامة

وفى الأمثال العامية "العصا لمن عصى". وكلاهما، العصا والعصيان، من اشتقاق واحد. فالعصا جزاء العصيان. وهو ما يفسر قسوة الأمن المركزى فى قمع المظاهرات، وسحل المعارضين، وضرب الطلاب والعمال المعتصمين.

والسؤال الآن، ما هو الرمز أو الرموز التى يمكن أن تعتز بها الحياة الدينية والسياسية والثقافية العربية؟ حتما، ليست العصا أو الهراوة بيد الشرطى أو السيف بيد السياف أو حبل المشنقة الذى لف حول عنق صدام ليخيف من يشق عصا الطاعة من الرؤساء. ما الذى تعتز به الثقافة العربية عبر قرونها الطويلة كى يكون رمزا لها. الشعر العربى، المتنبى وأبو فراس؟ الوحى الإسلامى ممثلا فى القرآن دون توظيفه سياسيا لتبرير نظم الحكم باسم الحاكمية والربوبية والألوهية والعبودية وتحويل القرآن إلى مجرد عقوبات وواجبات دون حقوق ومتطلبات؟

الآثار العربية والإسلامية من عجائب الدنيا، تاج محل، قصر الحمراء بغرناطة، الجامع الأزرق باستانبول، القلعة بالقاهرة، مسجد الحسن الثانى بالمغرب أو كوالالمبور فى ماليزيا أو روما بإيطاليا. وهى فى النهاية قصور ومساجد للأمراء وليست من آثار الشعوب. هل رموز العلم الرياضى كالحسن بن الهيثم أو الطبيعى كجابر بن حيان أو الفلسفى كابن رشد؟ وهل بالضرورة أن يمسك الرئيس بيده شيئا يرفعه فوق رءوس الناس! ولماذا يكون بالضرورة هى "العصا"؟

obeikandl.com

١٣- من يريد الديموقراطية؟

كثر الحديث عن الديموقراطية فى الآونة الأخيرة. امتلأت بها الصحف والقنوات الفضائية والندوات المحلية والمؤتمرات الدولية. وصب فيها رأس المال الدولى مئات الملايين من الدولارات حتى ملأت الدنيا وشغلت الناس. وهى موجة من موجات الاستقطاب الذهنى مثل العولمة، وحوار الحضارات، وحقوق الأقليات، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، بعيدا عن مصالح الناس المباشرة، الفقر والفساد.

وكثرة الحديث عن شىء تعنى أنه لا يتحقق، واستعمال الكلام كغطاء على إبقاء الأمر الواقع كما هو، القهر والتسلط والطغيان. لذلك يحدث رد الفعل عند جماعات العنف السياسى بإعطاء الأولوية للأفعال على الأقوال والإعداد لقلب نظم الحكم التى أسهبت فى استعمال الأقوال كغطاء يخفى العجز عن الأفعال أو عدم القدرة عليها أو الرغبة فيها. وكثرة اليقين توحى بالشك لأنه لا وجود ليقين مطلق. مازال الحديث عن الديموقراطية يخضع لعقلية المفتاح السحرى القادر على حل كل شىء مثل "الإسلام هو الحل"، "الديموقراطية هى الحل"، من آثار "الفرقة الناجية". إذ لا يوجد حل واحد لكل شىء. بل هناك عدة حلول لبعض الأشياء.

والسؤال هو: من يريد الديموقراطية بالفعل؟ من الصادق فى قوله من بين آلاف المقالات والنداءات؟ وهل الذى يتحدث عن شىء يفعله أم أن الحديث مكتف بنفسه بدعوى التوعية كما هو الحال فى الوعظ الدينى؟ من هم أصحاب

(*) الاتحاد: ٨ سبتمبر ٢٠٠٧، الدستور: ٦ سبتمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٩ سبتمبر ٢٠٠٧.

المصلحة الحقيقية فى الديموقراطية على مستوى الأفعال وليس على مستوى الأقوال؟ ما هى العقبات التى أمامها والتى لا يزيلها أحد، ويكتفى بالبكاء والعويل أمام الحائط المنيع؟

هناك ثلاث قوى رئيسية تتحدث عن الديموقراطية إلى درجة الصراخ. الأولى الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الأوروبية وإسرائيل فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الجديد أو الكبير حتى يضم إسرائيل. ويطول الخطاب إيران وتركيا. والدعوى هى القياس على العالم الحر، وتدعيم القيم "العالمية"، واتخاذ النموذج الغربى نموذجا للتحديث وحتى تقل كراهية عالم الستار الحديدى ومحور الشر وجماعات الإرهاب عداءها للغرب: "لماذا يكرهوننا؟". وهى كلمة حق يُراد بها باطل. إذ يعنى المشروع الأمريكى الصهيونى بها الليبرالية الاقتصادية وليس السياسية، والخصخصة والسوق والربح، وتخلى الدولة عن سيطرتها على أدوات الإنتاج. فالعالم قرية واحدة. والعولمة عصر الجميع. والمنافسة حرة، والمجتمع المدنى المفتوح له الأولوية على الدولة الأيديولوجية المغلقة، والشعوب فى حاجة إلى استهلاك والتمتع بمستوى الحياة الأمريكية. والإنتاج مهمة الدول الأخرى مثل مجموعة الثمانية الأكثر تصنيعا. والعدالة الاجتماعية مؤجلة. تعنى الديموقراطية الرأسمالية الاقتصادية دون قيمها الليبرالية فى العقلانية والترشيد واحترام قوانين المنافسة الحرة دون احتكار أو تلاعب بالأسواق أو التهرب الضريبى.

والثانية نظم الحكم القائمة. فإنها تروج للديموقراطية فى أجهزة الإعلام الرسمية، ملكية أكثر من الملك، رضوخا للضغوط الخارجية لتلقى المساعدات الأجنبية، ودفاعا عن نفسها ضد الكرباج الذى تلهب به القوى الخارجية ظهرها، وورقة الضغط الخارجى عليها مع ملفات أخرى مثل ملف حقوق الإنسان وملف الفساد. أحيانا تستعمل الديموقراطية من نظم الحكم للاستهلاك المحلى ولاتقاء نقد

أحزاب المعارضة والمزايدة عليها وملء الساحة بالخطاب الديموقراطى حتى على مستوى الأقوال دون الأفعال. وإن حدثت أفعال فإنها تتم نفاقا ورياء. واجهة ديموقراطية دون مضمونها مثل معظم مجالس الشعب والشورى القائمة التى أتت إما بانتخابات مزيفة لصالح الحزب الحاكم أو بالتعيين، كلها أو جزء منها. هى ديموقراطية الحزب الواحد بالرغم من التعددية السياسية الصورية. لا ترى حرجا من تغيير مواد الدستور من أجل مد حكم الرئيس مدى الحياة أو من أجل التوريث أو من أجل سن قوانين ضد الديموقراطية مثل الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ وقوانين مكافحة الإرهاب، وتحريم انشغال الجمعيات الأهلية والجامعات بالسياسة، وملء السجون بالمعتقلين السياسيين، والتشريع لمعارضة مستأنسة دون السماح لأحزاب معارضة شعبية لها رصيدها فى الشارع السياسى.

والثالثة بعض أحزاب المعارضة السياسية ذاتها التى تستعمل ورقة الديموقراطية كأداة ضغط على النظام ووسيلة لزعزعته. فهى من ضمن أدوات الصراع السياسى فى الداخل. وبعض الأحزاب الليبرالية تستعمل الورقة لكسب رضا القوى الخارجية عليها كما يفعل الليبراليون الجدد الآن بما فى ذلك التطبيع الفورى مع إسرائيل. وفى نفس الوقت أيضا لتكسب رضا الشعوب التى تتوق إلى الحرية والديموقراطية. ولا ترتبط الديموقراطية بمشروع متكامل يضع مع الحرية العدالة الاجتماعية ومع الديموقراطية التخطيط الشامل. أما الجمعيات الأهلية فإنها مازالت محدودة الأثر، محاصرة، تخاطب النخبة. ويتصدر نشاطها موضوع حقوق الإنسان.

هنا تكمن أزمة الديموقراطية. لا تجد قوة سياسية تدافع عنها فى الخارج أو الداخل، شكلا ومضمونا، دفاعا عن مصالح الشعوب. لا أحد يؤمن بها. الكل يستغلها لصالحه الخاص، والخاسر هو الشعب. إنما يكون الإخلاص للديموقراطية

بنزع جذور التسلط من الثقافة الوطنية الحامل لتراث طويل من ثقافة السلطان التى تحولت إلى بنية اجتماعية تقوم على التسلط. خلقت مجتمع "سى السيد"، فى الأسرة، الأب أو الأخ الأكبر، وفى المجتمع، الشرطى ورئيس المؤسسة أو الهيئة المتكرر فى المديرين العموميين ورؤساء الهيئات والوزراء، وفى المؤسسات الإعلامية والتعليمية، رئيس التحرير وناظر المدرسة، وفى الدولة فى شخص الرئيس وحرمه وابنه الأكبر أو الأصغر أو الوحيد.

تكمن أزمة الديموقراطية فى سيادة الثقافة المضادة واستمرارها بل وترسيخها بعد انهيار التجارب التحديثية المعاصرة، الليبرالية والاشتراكية والقومية، بل والإسلامية والماركسية، لأن الثقافة الوطنية الحامل للنهضة القومية مازالت تقوم على عناصر مناهضة للحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية وللمادية التاريخية. مازالت الثقافة الوطنية تقوم على عناصر مناهضة للديموقراطية والتعددية السياسية والانتخابات الحرة. مثل حديث الفرقة الناجية الذى يشكك فى صحته ابن حزم والعز بن عبد السلام، وهو ما وضعه الغزالى فى "الاقتصاد فى الاعتقاد" تحت عنوان " فى ما يجب تكفيره من الفرق"، والخطورة فى التوحيد بين الفرقة الناجية والفرقة الحاكمة أى الحكومة التى تكفر المعارضة أو تخونها وتحكم بمفردها. هى أزمة التصور الرأسى للعالم الذى يجعل العلاقة بين طرفين، الحاكم والمحكوم مثلا، علاقة بين الأعلى والأدنى، وليست علاقة أفقية، المواطن والمواطن، علاقة بين الأمام والخلف من أجل تحويل مفهوم الرئاسة إلى مفهوم التقدم، ومفهوم التبعية إلى مفهوم المساواة. هى أزمة الأقوال المأثورة عن القدماء مثل "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" والتى تعطى الأولوية للحاكم على المحكوم، والسلطة السياسية على الحق السياسى. هى أزمة الفقه السياسى الذى يعطى السلطة المطلقة للحاكم مثل أن طاعة الحاكم، أولى الأمر، من طاعة الله

والرسول، وأن معارضة الحاكم فتنة، وأن الخروج عليه عصيان، وتهميش تراث فقهى أخر يقوم على النصيحة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومقاضاة الحاكم أمام قاضى القضاة بل وشرعية الخروج على الحاكم الظالم. فأعظم شهادة "كلمة حق فى وجه إمام جائر". هى أزمة الأمثال العامية التى ترسبت فى الوجدان الشعبى مثل "إن كان ليك عند الكلب حاجة قول له يا سيد"، "الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح"، "ابعد عن الشر وغنى له".

الحل إذن هو إعادة بناء الثقافة الوطنية من الأساس وإعادة تأسيسها ليس على ثقافة السلطة بل على ثقافة المعارضة مثل شرعية الاختلاف، وأن الكل راد ومردود عليه، وأدب الحوار ضد امتلاك الحقيقة والاستئثار بالرأى، "لا خاب من استشار". وفى فقه الاختلاف لو خالف واحد إجماع الأمة يكون الإجماع ناقصا احتراما للرأى الآخر. كان الرسول يستشير أصحابه. وكان الصحابة يختلفون فيما بينهم دون تكفير أو تخوين. الحل هو تثوير الثقافة الوطنية وجعلها الحامل الرئيسى للنضال السياسى والنهضة القومية. الحل هو تحريك الأغلبية الصامتة وحشد الناس دفاعا عن مصالحهم العامة حتى تخرج الديموقراطية من معركة النخبة إلى نضال جماهيرى واسع. فتعود الأمة إلى مسارها التاريخى دون توقف. وتستلهم تراثها، المصدر الرئيسى لثقافتها الوطنية حتى تمارس الأجيال الجديدة ما حفظته فى مراحلها التعليمية الأولى مثل "لماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟".

١٤- الصحة والمرض

من مؤلفات أرسطو فيما يسمى "الطبيعيات الصغرى" الصحة والمرض مع اليقظة والنوم، والشباب والهرم، والحاس والمحسوس. وهى ظواهر الحياة الإنسانية. وهى إقرار لواقع إنسانى، ونتيجة لعلاقة النفس بالبدن. وهى ليست عيبا أو نقصا أو شيئا يخشى منه يخفيه الإنسان ويتستر عليه وينفيه أو يتطير به شرا ويكذّبه. فكل إنسان يصح ويمرض على التوالى. لا الصحة دائمة حتى عند شجيع وطرازان، ولا المرض دائم حتى عند العليل. ولا الشباب دائم لأنه ينتهى إلى الهرم. ولا الهرم دائم لأنه ينتهى بالموت، وهى نهاية الحياة الأرضية. ولا اليقظة دائمة بل تذهب وتجىء. ولا النوم دائم حتى عند أهل الكهف. ولا الحاس دائم فقد يفقد الإنسان حواسه مثل الأعمى والأصم، ولا المحسوس دائم بل يتغير أو يغيب.

المرض والنوم والهرم وفقدان الحواس من ضرورات الحياة مثل الموت. ولا يوجد إنسان لا يمرض ولا ينام ولا يهرم ولا تعمل حواسه على الوجه الأكمل كلما تقدم فى السن. بل إن كل ذلك من عظمة الإنسان. الإنسان الذى لا يمرض من صنع الخيال. والإنسان الذى لا يموت يكون مسخا للكائنات. لذلك كتبت سيمون دى بوفوار "كل البشر فانون". وأصبح المرض والهرم والموت داخلين فى نسيج الوجود الإنسانى. وكان طرازان شخصية تلهب خيال الأطفال والمراهقين وكذلك "شجيع السيما" و"بطل الشاشة" و"فتوة الحارة". الخلود لا يأتى إلا بعد الموت، بالسيرة

(*) الاتحاد: ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٧.

العطرة والآثار الحميدة، والولد الصالح، والصدقة الجارية، والذكرى الطيبة، والإمام العادل، والزعيم الخالد.

لذلك تأسست كليات الطب والتمريض. وصنعت الأدوية وأجهزة الكشف وأساليب العلاج المتعددة ابتداء من الطب النبوى حتى الطب الحديث، والعلاج وإجراء العلميات الجراحية بالخارج إن استعصى العلاج وإجراء العلميات فى الداخل، مادام المريض قادرا أو يعالج على حساب الدولة.

ولا تنطبق دورة الحياة والموت على الإنسان وحده بل على كل الكائنات الحية، النبات والحيوان، من الحشرة إلى السوبرمان، ومن الدودة إلى الحاكم بأمر الله، ومهما تخيل الأدباء "أكسير الحياة" الذى يرد الإنسان من المرض إلى الصحة، ومن الهرم إلى الشباب "حبك شباب على طول"، ومن النوم إلى اليقظة "حتى فى أحلى الأحلام"، ومن الموت إلى الحياة. إن اليهود فقط هم الذين يتمنون الحياة، **﴿ولتجدنهم أحرص الناس على الحياة﴾، ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولوكنتم فى بروج مشيدة﴾.**

وطبقا لقوانين الجدل، لكل إيجاب سلب، ولكل سلب إيجاب. والحياة هى هذا الجدل بينهما. فبفضل المرض أدرك الإنسان قيمة الصحة. ولولا الهرم لما أدرك الإنسان حلاوة الشباب طبقا لقول الشاعر:

ليت الشباب يعود يوما ∴ لأذكره بما فعل المشيب

ولولا العمى والصمم لما أدرك الإنسان قيمة البصر والسمع. ولولا الموت لما حرص الإنسان على الحياة. ولولا الوردة الذابلة لما حن الإنسان إلى الوردة اليانعة. الورد الاصطناعى هو وحده الذى لا يذبل. ومع ذلك يعلوه التراب.

فلماذا اعتبار المرض أو الهرم أو النوم أو الموت شائعات وهي وقائع لا يمكن إنكارها وحقائق لا يمكن إغفالها. الله وحده هو الذي لا يمرض ولا يهرم ولا ينام **﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾**، ولا يموت **﴿هو الحي القيوم﴾**. أليس الحاكم بشرا؟ بل إن فرعون نفسه كان يمرض ويموت. وكان يخلد نفسه بعد الموت ببناء مقبرة عظيمة له يكتب على جدرانها آثاره. يضع في داخلها الطعام والشراب والحلى والأواني حتى إذا عادت الروح فإنها تجد ما تأكله. وتنتظر الحساب، الثواب أو العقاب. الخلود من اختراع المصريين. واكتشفوا التحنيط حتى لا يبلون.

وإذا كان فرعون يمرض وهو في القصور فما بال باقي المصريين الذين يمرضون وهم في النجوع، من الأمراض المستوطنة، ومن العطش، ومن شرب المياه غير النقية؟ وإذا كان فرعون يضع في مقبرته ما لذ من الطعام والشراب فما بال المصريين الذين يجوعون ويقفون الطوابير لشراء الخبز قبل أن يُرفع دعمه، ولا يقدرون على البقاء مع غلاء الأسعار والدخل المحدود والأسرة الوفيرة. وإذا كان الحاكم قادر على الشفاء والعلاج بالداخل في المستشفيات الاستثمارية الدولية الخاصة أو بالخارج فما بال باقي المصريين الذين يمرضون ولا يستطيعون العلاج وشراء الدواء في المستشفيات العامة أو في العيادات الخاصة أو الملحقة بالمساجد؟ وإذا كان الحاكم يخشى من المرض فما بال المصريين الذين يتمنون الموت. وإذا كان يريد الحكم مدى الحياة لأنه باق إلى الأبد فما بال باقي المصريين الذين يقتلون بعضهم بعضا من أجل بضعة جنيهات والخلاف على الدين أو السكن أو الريح أو ينتحرون؟

فهل المرض تهمة يبرئ الإنسان نفسه منها؟ هل هو شائعة يروجها الخصوم وتحتاج إلى دحضها وتكذيبها وتفنيدها واتهام من يروجونها وتوعدهم بالعقاب؟ هل هو خبر مغرض هدفه إثارة القلاقل والطعن في الاستقرار وتهديد الاستمرار

والمخاطرة بالنظام؟ هل هى مصيبة تحل بالإنسان، والصحة والمرض من الله كما قال المسلمون ردا على أرسطو الذى جعلهما من طبيعة الكائن الحى؟ هل هى كارثة وطنية تحل بالبلاد تهدد أمنه، وتقضى على حاضره ومستقبله؟ هل هى نهاية العالم وخراب الدنيا والآخرة بالانتظار؟

ربما تكون تمنيات الناس ورغباتهم المكبوتة وأحد مظاهر الخلاص ممن يجثم على صدورهم عقودا من الزمان. والتفكير بالتمنى أحد مظاهر تفكير المضطهدين والمظلومين والمقموعين والمسجونين السياسيين والمعذبين فى المعتقلات، بتمنى الخلاص من الظالم "لك يوم يا ظالم". هو نوع من الأمل فى المستقبل بالخلاص القريب من كابوس الحاضر وعدم استمراره فى المستقبل بكوابيس أخرى من نفس النوع.

وتلك نتائج الحكم المطلق الذى يقوم على الفرد الواحد والذى تتركز السلطة بيديه وينفرد بالقرارات المصيرية للبلاد، فى السلم والحرب، والفقر والغنى، فى التسلط والطغيان. هذه حصيلة التوحيد بين الدولة والفرد "أنا فرنسا" كما كان يقول ديجول أو "أنا مصر" كما كان يقول فرعون. يظن أن المرض من علامات النهاية، وأن النوم موته صغرى، وأن الهرم يتبعه الموت **﴿إنك ميت وهم ميتون﴾**، **﴿ولكل أجل كتاب﴾**.

وفى القرآن الكريم ذكر المرض فى القرآن أربعا وعشرين مرة بمعنيين، مرض الجسد (عشرة مرات) وليس على المريض حرج فى عدم صوم رمضان **﴿فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾** أو المشاركة فى الجهاد والدفاع عن الأوطان **﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج﴾**، ومرض القلب (خمسة عشر مرة) وهو الأخطر. فمرض القلب يشمل الريبة والشك

فى قدرات النفس على أخذ مصيرها بيدها بدلا من التبعية. ويشمل أيضا الغرور والخيلاء. وهم المنافقون الذين يقولون ما لا يفعلون. وليس على المريض حرج أن يؤجل كل واجباته والتزاماته بما فى ذلك الحكم والرئاسة لأنه من باب تكليف ما لا يطاق. وقد أتت الشريعة رحمة للعالمين، حاكمين ومحكومين.

obeikandl.com

١٥- السلطة الرابعة

من المبادئ الدستورية المعرفة، ومن مكتسبات ثورات الشعوب مثل الثورة الفرنسية، ومن رؤى الفلاسفة مثل مونتسكيو، مبدأ الفصل بين السلطات الثلاث: القضائية والتشريعية والتنفيذية. ويفضل بعض المحدثين استعمال لفظ "التمييز" بين السلطات بدلا من لفظ "الفصل" اعترافا بالواقع. إذ أثبتت التجارب والنظم السياسية المختلفة حتى الليبرالية منها استحالة الفصل التام بين هذه السلطات الثلاث. ففي لحظات التحول الاجتماعي والسياسي وظهور زعيم يجسد ثورة المجتمع تكون الأولوية فيه للسلطة التنفيذية على السلطتين الأخريين مثل ديجول في فرنسا أثناء تحريرها من الاحتلال النازي وتنظيم المقاومة في الحرب العالمية الثانية، ومثل عبد الناصر في الستينيات عندما جسد بشخصه مبادئ الثورة المصرية تشريعا وتنفيذا وقضاء بمحاكمة رجال الإقطاع السابق والمعارضين السياسيين من الإخوان والشيوعيين. ومثل معظم زعماء العالم الثالث منذ باندونج حتى انتهاء عصر الزعامات التاريخية، نهرو، تيتو، سوكارنو، نكروما، سيكوتوري، كنياتا، ومازال كاسترو وموجابي مستمران من روح العصر الجميل.

وتؤكد كل النظم السياسية بصرف النظر عن توجهها الأيديولوجي، اشتراكي أو رأسمالي، وطني أو قومي، على أولوية السلطة القضائية على السلطتين التشريعية والتنفيذية، واستقلالها عنهما لأنها تمثل العدل. والعدل أساس الملك. وهي التي

(*) الاتحاد: ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٧، الدستور: ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٧، العربي الناصري: ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٧.

تفصل بينهما فى حالة النزاع وضياع حقوق المواطن بين قانون فى صفه وتنفيذ ضده. لذلك يلجأ المواطنون إلى القضاء فى المحكمة الإدارية لأخذ حقوقهم. بل ويستطيع المواطن مقاضاة رئيس السلطة التنفيذية، رئيس الجمهورية، باعتباره المسئول الأول عن ضياع الحقوق. فوظيفة القضاء ليس فقط حل النزاعات بين المواطنين حول عمليات البيع والشراء والزواج والطلاق، والملكية واللاملكية بل أيضا بين الحاكم والمحكوم. وقد جاء وقت فى تاريخ بنى إسرائيل غاب فيه الملوك، وانقطع فيه الأنبياء فحكم القضاة. إذ يجمع القاضى بين قوة الملك وعدل النبى. وتاريخ القضاء فى الإسلام أشهر من أن يُستدعى. فطالما حكم القاضى للمحكوم ضد الحاكم، وللفقير ضد الغنى، وللمقهور ضد القاهر. فالكل سواء أمام القانون. لا فرق بين أمير وغفير، وسلطان ورعية، وشريف وعامى. والقاضى مشهود له بالورع لأنه إنما يقضى بجمرة من نار. وطالما نصر الذمى على المسلم، والمواطن على ابن الأكرمين طبقا للقصاص. وتاريخ القضاء فى مصر مشهود له بدفاعه عن استقلاله ضد مذبحة القضاة، وميل بعضهم إلى أهواء الحكام أو إلى بعض التيارات السلفية المتشددة فيما يتعلق بقضايا الرأى. وما تقوم به نوادى القضاة حاليا فى الدفاع عن القانون ضد طغيان السلطة التنفيذية يشهد له الجميع فى الداخل والخارج. بل إن قاضى القضاة فى الفقه هو الذى يقود ثورة الناس ضد الحاكم الظالم إن لم يستمع إلى النصيحة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولم ينفذ أحكام القضاء. يُعين ولا يُعزل.

وتأتى السلطة التشريعية فى المرتبة الثانية، سلطة سن القوانين ووضع الدساتير وتنظيم علاقات الناس بين بعضهم البعض، وبينهم وبين السلطة التنفيذية. والسؤال هو: لصالح من يتم ذلك؟ ما هى هذه الهيئة المنوط بها سن القوانين أو تعديلها؟ وهل ترعى الصالح العام أو الصالح الخاص؟ ألا تفصل القوانين طبقا

لرغبة الحاكم فيما يسمى "ترزية القوانين" من أجل التوريث أو قوانين الحبس فى قضايا النشر أو إلغاء قانون الطوارئ ووضع قانون مكافحة الإرهاب، والمسمى واحد بصرف النظر عن اختلاف الأسماء، وتعديل قوانين الجامعات ولوائح الطلاب من أجل مزيد من سيطرة أجهزة الأمن على المؤسسات التعليمية؟ لذلك تطالب الحركة الإسلامية بالقرآن كدستور لأنه لا يظلم، وبتطبيق الشريعة الإسلامية لأنها تقوم على العدل. ويطالب رجال القانون باستقلال السلطة التشريعية مثل استقلال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.

ثم تأتى السلطة التنفيذية فى نهاية المطاف. وهى التى تنفذ القانون ولا تعصاه أو تعتدى عليه. وهى التى تلتزم بأحكام القضاء وتنفذه بالقوة. وتتمثل أساسا فى أجهزة الشرطة والأمن والدفاع. وما يحدث بالفعل هو استعمال الشرطة أحيانا القوة وحدها لتنفيذ رغبات السلطة التنفيذية مع مخالفات الإجراء القانونية. تعذب المواطنين فى الأقسام وفى المعتقلات والسجون لاستدراجهم إلى اعترافات كاذبة. والمعتقل السياسى له الأولوية على المعتقل الجنائى مرتكب الجريمة. وكثيرا ما يتم تلفيق التهم للقبض على نشطاء المعارضة السياسية، وكثيرا ما عبر الأدباء والفنانون عن مفاسد الشرطة طبقا للمثل الشعبى "حاميها حراميها". وتقام المحاكم العسكرية للخصوم السياسيين باسم قوانين الطوارئ الذى يجيز الاعتقال لمدة أسبوعين وتجديد الاعتقال لمدة ستة شهور دون تحقيق أو جريمة أو محاكمة. رئيس السلطة التنفيذية، هو رئيس الدولة، بيده كل شىء. فهو رئيس الجيش والشرطة والحزب وكل الأجهزة القضائية والتشريعية والتنفيذية. السلطة التنفيذية هى التى تقرر. والسلطة التشريعية هى التى تصوغ القوانين. والسلطة القضائية فرع من السلطة التنفيذية.

والأهم من ذلك كله "السلطة الرابعة" منذ ثورة المعلومات وانتشار الصحف

والقنوات الفضائية وأجهزة المرئية والمسموعة وشبكات المعلومات والمواقع الإليكترونية. هى سلطة الرأى العام والكشف عن الحقيقة وتبصير الناس بحقوقهم. هى سلطة الخبر الصحيح والرأى والرأى الآخر. وهو ما سماه القدماء سلطة العلماء والفقهاء، والمحدثون "ولاية الفقيه". سلطة العلماء لها الأولوية على السلطة القضائية والتشريعية والتنفيذية. هى السلطة الأولى، سلطة الرأى العام الذى تحاول "هيئة المفوضين" التعرف عليه. هى سلطة الجهر بالحق وكشف الكذب.

ومن ثم فإن إلقاء قبض السلطة التنفيذية على رؤساء تحرير سبعة من صحف المعارضة وتقديمهم إلى السلطة القضائية قضاء على الفصل بين السلطات وعلى أولوية السلطة الرابعة على السلطات الثلاث الأخرى. إذ يقوم الصحفى اليوم بما كان يقوم به العالم والفقيه والإمام والمفتى بالأمس، الإعلان عن الحق. ولا مرجع له إلا صحة الخبر وضميره الحى. والرد على الخبر الكاذب بالخبر الصادق، وليس بالاعتقال، ومواجهة الرأى بالرأى وليس بالحبس. تسىء السلطة التنفيذية وهى السلطة الأخيرة استعمال سلطتها، وتطعن فى السلطة الرابعة وهى السلطة الأولى، قلبا للموازين وإتباعا لسياسة الهرم المقلوب.

دور السلطة الرابعة هو الكشف عن الحقيقة التى يحكم بها، القاضى ويشرع بها المشرع، وتنفذها أجهزة الأمن. السلطة الرابعة هى السلطة الأولى فى المجتمع، سلطة الرأى العام، والوعى اليقظ، والتوعية بالحقوق، ومراقبة الحكام، وتحريك الشعوب. يقوم بها خطيب المسجد والإمام فى تراثنا القديم قبل أن يلجأ المختصم إلى القاضى. لا يفتى إلا ابتغاء الحق، وليس إرضاء لرغبة السلطان. وأن أعظم شهادة قول كلمة حق فى وجه سلطان جائر. وقد انهار حكم عاد وثمود لأنه اعتمد على القوة وحدها. وتحكم فرعون فى عقول الناس **﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾**. قوة المال والبنون زائلة **﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا**

وأولادا﴾. وتلك سنة التاريخ ﴿أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم. كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم، وكان لهم من الله من واق﴾. والمال والسلطان لا يغنيان ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض. فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾.

obeikandl.com

١٦- حدود سلطة الرؤساء

يظن الرؤساء أن سلطاتهم بلا حدود، وأنهم يفعلون ما يشاءون بدولهم ونظمها السياسية وشعوبها، متشبهين بالإله. فأدوات السيطرة والقمع فى أيديهم. الجيش والشرطة وأجهزة الأمن وجهاز الدولة ومصادر الثروة والمؤسسات التشريعية والانتخابات البرلمانية والصحافة القومية ونظم التعليم وأجهزة الإعلام بل والقوى الخارجية والتى لا يعصون لها أمرا. فالسيد فى الداخل عبد للخارج، والحر فى الداخل سيد فى الخارج.

وهو تصور راجع إلى تصور تقليدى موروث لله من الأشعرية القديمة **(فعال لما يريد)**، **(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)**، **(وما تشاءون إلا أن يشاء الله)**، **(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)**. وهو إفراز للدولة السنية منذ انتصار الأمويين وانتقال الحكم وراثة من معاوية إلى يزيد إلى أمراء بنى مروان. فهو وضع سياسى يجد له تشريعا فى تصور دينى لما كان الدين هو الذى يعطى الشرعية للسياسة. وهو التصور الذى عارضه المعتزلة القائلين بالواجبات العقلية مثل سيادة القانون، وفعل الصلاح والأصلح، والتعويض عن الآلام، والاستحقاق، واطراد قوانين الطبيعة **(كل فى فلك يسبحون)**، **(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابقا للنهار)**، **(ولن تجد لسنة الله تبديلا)**، **(ولن تجد لسنة الله تحويلا)**. فالكون يخضع للسنن. والتاريخ يسير طبقا لقانون. لذلك كان النظر فى الطبيعة والآثار جزء

(*) الاتحاد: ٣ نوفمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٤ نوفمبر ٢٠٠٧.

من الاعتبار.

وفى النظم الديموقراطية سلطة الرؤساء يحدها الدستور. وإن خرق الرئيس الدستور يُعزل. ويحدها البرلمان والسلطات التشريعية وإلا حوكم. ويراقبها القضاء والمحكمة الدستورية العليا التى تحكم ضد الرؤساء إذا ما خرقوا الدساتير والقوانين. ويواجهها الرأى العام الذى تعبر عنه الصحافة الحرة. فالوظيفة العامة ملك للرأى العام. ورأس السلطة التنفيذية مسئول عن رعاية الصالح العام. تحدد سلطة الرؤساء من الداخل، من طبيعة النظام السياسى الديموقراطى. فقد نشأت الديموقراطية ضد تسلط الكنيسة والملكيات المطلقة والإقطاع. فى النظم الرئاسية التى يجمع فيها الرئيس بين سلطة رئيس الدولة وسلطة رئيس الوزارة تتحدد سلطة الرؤساء بالبرلمان والدستور. وفى النظم البرلمانية التى تفصل بين سلطة رئيس الدولة ورئيس الوزراء، يكون رئيس الوزراء هو المسئول أمام البرلمان ولا يكون للرئيس إلا منصب شرفى "بروتوكولى". إنما السلطة للشعب الذى ينتخب ممثليه وحكامه.

وفى النظم التسلطية يظن الرؤساء أن سلطاتهم بلا حدود. فالدولة ملكية خاصة لهم، ضيعة ورثوها أو استولوا عليها بقوة السلاح. تُسمى أسماء الدول بأسمائهم. والقرارات المصيرية فى الحرب والسلام فى الرأسمالية أو الاشتراكية، فى العزلة والاحتجاب داخل الحدود القطرية أو فى الانتشار وتحمل المسئولية القومية بأيديهم. ملهمون من الله أو تابعون لإملاءات القوى الكبرى أو خاضعون لجماعات الضغط ورجال الأعمال التى بيدها السلطة والثروة. هو تصور أبوى موروث فالرئيس هو "سى السيد" فى الأسرة والمجتمع، فى المدرسة والجامعة، فى الوزارة وفى الإمارة، فى قسم الشرطة وفى المعتقل. هو تصور شعائرى قبائلى أسرى طائفى أو عرقى. فالرئيس ينتمى إلى قبيلة أو عشيرة أو عائلة أو طائفة أو عرق. يدافع عن بنى بلدته أو عن طائفته ومذهبه. ومن كثرة ممارسة هذا الاقتناع، أن سلطة الرؤساء بلا حدود،

تبدأ المخاطر الخارجية والداخلية لتبين حدود سلطة الرؤساء بالغزو الخارجى المباشر كما حدث فى العراق وأفغانستان أو بالضغوط الخارجية كما يحدث فى مصر أو تفكيك الأوطان كما يحدث فى السودان والصومال ولبنان والذى قد يصل إلى حد الحروب الأهلية، تضحية بالوطن لصالح العشيرة والقبيلة أو الطائفة والمذهب.

وما يبين حدود سلطة الرؤساء هى المقاومة الداخلية بشتى أنواعها. فالأوطان والشعوب عصيّة على التطويع مهما بلغت سلطة الرؤساء المطلقة. ومن مظاهرها انقلاب الجيش كما حدث فى أوائل الخمسينيات فى الوطن العربى بالرغم من سلطة الاستعمار والقصر والإقطاع والأمن. وقد تصحبه حركة اغتيالات الرؤساء كما اغتال الرؤساء زعماء المعارضة، واستعبدوا الشعوب والأوطان. فلا يفل الحديد إلا الحديد. وقد تتكون جماعات سرية أو علنية مسلحة لمقاومة سلطة الرؤساء وتقاوم قوى الجيش والشرطة والأمن خاصة فى الجبال كما حدث فى الجزائر وكما يحدث الآن فى باكستان. وقد تقوم ثورة شعبية عارمة وتحركات جماهيرية واسعة كما حدث فى مصر فى مارس ١٩٦٨ ضد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧، وفى يناير ١٩٧٧ ضد غلاء الأسعار، وفى يناير ١٩٨٦ من الأمن المركزى ضد الأغنياء فى الدولة. وقد تندلع مظاهرات جزئية فئوية ضد الجوع والغلاء والضنك والبؤس من العمال فى كبرى المصانع، ومن الموظفين فى كبرى الوزارات والمصالح المالية. وقد تتحول المعارضة إلى عصيان مدنى فى الشوارع مثل لبنان. وقد تتحرك نوادى القضاء وأعضاء هيئات التدريس بالجامعات والاتحادات والنقابات المهنية ومنظمات المجتمع المدنى. وقد تتوالى مظاهرات الطلاب بالرغم من حصارها داخل أسوار الجامعات ضد اللوائح الطلابية المفروضة وتدخل الأمن وشطب الطلاب الإسلاميين أو الناصريين من قوائم الانتخابات. وقد يعلو صوت صحف المعارضة

وتتناول كل الممنوعات في العقل السياسي، سلطة الحزب الحاكم، تزوير الانتخابات، الرئاسة مدى الحياة، التوريث، فساد الطبقة الحاكمة، الاحتكارات، تهريب الأموال.

هنا يدرك الرؤساء أن هناك حدودا لسلطاتهم المطلقة وأنهم لا يعيشون في دول خاوية من الشعب والمؤسسات، وأن الأوطان كيانات مستقلة عن النظم السياسية. قد يتحول الرئيس إلى أسد جريح عندما يدرك حدود سلطته. فيفقد أعصابه. وتطيش ضرباته. فيضع كل معارضيه في السجون كما فعل رئيس الجمهورية الثانية في مذبحة سبتمبر ١٩٨١ أو تقديم سبعة من رؤساء صحف المعارضة أمام المحاكم العسكرية كما يفعل الآن رئيس الجمهورية الثالثة. فنتج عن الأول حادث المنصة. ولا ندري ماذا ينتج عن الحدث الثاني.

وقد يدرك الرؤساء حدود سلطاتهم بعد فوات الأوان بالموت الفجائي **﴿إنك ميت وهم ميتون﴾** أو بما لا يمكن التنبؤ به في الواقع. فالعنف قادر على اختراق سياج الأمن مثل حادث المنصة في ٦ أكتوبر ١٩٨١ أو دس السم لرئيس يُراد أعداؤه التخلص منه كما حدث لرئيس السلطة الوطنية الفلسطينية أو وقوع طائرته كما حدث لجون جارانج رئيس جبهة تحرير السودان.

إن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة ضد طبائع الأشياء. فالعالم متعدد القوى. بقاؤه في توازنها حتى لا يميل الميزان. وهو ما تثبته تجارب التاريخ ونهاية نظم الطغاة عند اليونان والرومان وفي الغرب الحديث بإعدامهم في المقصلة. وهكذا كان مصير الفراعنة **﴿ما أرى لكم من إله غيري﴾**، **﴿وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾**. وكما عبر عن ذلك حافظ إبراهيم في مصر تتحدث عن نفسها:

كم بغت دولة عليّ وجارت ∴ ثم زالت وتلك عقبى التعدي

ولذلك رفعت الثورة الإسلامية فى إيران شعار "الله أكبر قاصم الجبارين" لا يبقى الطغاة حتى ولو كثرت أموالهم وأولادهم **﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا﴾** تلك سنة التاريخ، **﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هم أشد منه قوة﴾** فلا يبقى الطغاة، **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض. فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾** فلا عُصى الأمن المركزى ولا القوانين المقيدة للحريات قادرة على استمرار الطغيان. لقد استكبرت عاد وثمود **﴿فإما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق. وقالوا من أشد منا قوة، وكانوا بآياتنا يجحدون﴾**. لذلك وصف بعض المؤرخين مصر بسبب النظام الفرعونى السائد فيها بأنها "أرض الطغيان والنفاق".

obeikandl.com

١٧- حدود الإيديولوجيات وقوة الفقراء

كانت الأيديولوجيات دائما العنصر المحرك للثورة سواء فى المجتمعات الغربية والشرقية على حد سواء مثل الثورة الفرنسية ضد الملكية والإقطاع، والثورة الإسلامية فى إيران ضد القهر فى الداخل والتبعية فى الخارج، والثورة الاشتراكية ١٩١٧ ضد القيصر والإقطاع، والثورة الأمريكية ضد الاحتلال البريطانى من أجل الحرية والاستقلال، والمسيرة الطويلة فى الصين للفلاحين ضد الإقطاع. وتتداخل فيها عناصر السياسة والاقتصاد، القهر والفقر دفاعا عن الحرية والمساواة.

وحدث نفس الشىء فى تاريخ العرب الحديث. كانت الثورات الأيديولوجية أمر طبيعيا. فالأحزاب السياسية التى تكونت منذ فجر النهضة العربية أحزاب أيديولوجية تمثل ممارسات عملية لتيارات فكرية. فالرأسمالية كنظام اقتصادى تقوم على الليبرالية كنظام سياسى. فإذا ما قامت الرأسمالية دون قيمها فإنها تتحول إلى نهب وسلب وفساد واحتكار واستغلال وتهريب رؤوس الأموال إلى الخارج. والاشتراكية كنظام اشتراكى تقوم على أيديولوجيات المساواة والعدالة الاجتماعية سواء كانت اشتراكية طوباوية أو دينية أو ليبرالية أو قومية أو علمية أى ماركسية. والأيديولوجية القومية تقوم على تيار فكرى يعتمد على وحدة الأمة والتاريخ واللغة والثقافة وليس بالضرورة العرق أو الدين. والإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية فى الوطن العربى والأحزاب الإسلامية الأخرى تقوم على

(*) الاتحاد: ١٠ نوفمبر ٢٠٠٧، الدستور: ١٣، ١٥ نوفمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١١ نوفمبر ٢٠٠٧.

الأيديولوجية الإسلامية، الإسلام عقيدة وشريعة، ونظم ومؤسسات ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾، ﴿الضالون﴾، ﴿الفاسقون﴾. وهى التجارب السياسية التى مرت بها مصر والوطن العربى فى النصف الأول من القرن العشرين. كانت الأولوية فيها للسياسة على الاقتصاد، وللفكر على الواقع، وللشعار على الوضع الاجتماعى. فالمجتمع التراثى أو الحديث له ولاؤه الأيديولوجى تعبيرا عن هويته قبل ولائه الاجتماعى تعبيرا عن فقره.

وكانت الأيديولوجية الوطنية هى القاسم المشترك بين هذه الأيديولوجيات السياسية. فالليبرالية فى العشرينيات قادها باشوات مصر الوطنيون، والاشتراكية فى الخمسينيات والستينيات قادها الضباط الأحرار حصيلة النضال الوطنى فى الأربعينيات. والحركة الإسلامية منذ الأفغانى ورشيد رضا إلى حسن البنا وسيد قطب قادها الوطنيون المصريون ضد الاستعمار والقصر. والماركسية التى حكمت فى تحالف مع باقى الأحزاب خاصة حزب البعث العربى الاشتراكى فى سوريا والعراق واليمن حمل لواءها زعماء التحرر الوطنى ضد الاستعمار. وكانت الثورات الكبرى فى مصر ثورات وطنية سواء ثورة ١٩١٩ أو ثورة ١٩٥٢. بل إن بعض التحركات الشعبية قامت أيضا دفاعا عن الحرية والاستقلال مثل النضال الوطنى فى مصر فى الأربعينيات، وحركات الجماهير فى ١٩٥١، وحرب الفدائيين فى قناة السويس ضد الاحتلال البريطانى، وأزمة مارس فى ١٩٥٤، ومظاهرة مارس ١٩٦٨ ضد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ والأحكام المخففة على قادة الطيران. واستمرت المظاهرات الوطنية ضد العدوان الأمريكى على شعب العراق والعدوان الإسرائيلى على شعب فلسطين. فالمعركة الوطنية لها الأولوية على المعركة الاجتماعية. ومواجهة العدوان فى الخارج مقدم على مواجهة القهر فى الداخل.

ثم توالت التحركات الجماهيرية بعد ذلك بدافع الفقر ضد غلاء الأسعار فى

الانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧، وتمرد قوات الأمن المركزى فى يناير ١٩٨٦، ثم مظاهرات عمال النسيج فى المحلة وموظفى وزارة المالية والضرائب العقارية هذا العام. وبدأت العدوى تسرى لدى باقى العمال والموظفين وينضم إليهم الفلاحون خارج نقاباتهم. فالطبقات المحرومة هى الأشد ضررا وصوتها يصل مباشرة للناس دون القنوات المتوسطة، النقابات والاتحادات والأحزاب وأجهزة الدولة.

ظهر أن للأيديولوجيات السياسية حدودا فى قدرتها على تحريك الجماهير فى العقود الأخيرة. فهى محصورة فى النخبة، والنخبة المثقفة. قادتها من النخبة، مثقفين وكتاب وفنانين وأدباء. وجماهيرها من النخبة من الطلاب والمهنيين والنقابيين. هى قلة كماً من حيث العدد، وكيفاً من حيث التكوين. ينتمون إلى الطبقة المتوسطة التى لم تعايش الحرمان ولم تعرف الضنك بالرغم من محاولات بعض الأحزاب التقدمية تكوين قيادات عمالية وفلاحية. تتسابق على السلطة، وتتنافس فيما بينها. كل منها يعتبر نفسه الفرقة الناجية. يغيب الحوار الوطنى بينها وبالتالى صعب تكوين جبهة وطنية أو ائتلاف عريض لإنقاذ البلاد نظرا لغياب التعددية كأساس نظرى وبنية ثقافية ورؤية سياسية. الجانب الاجتماعى فيها مازال مهمشا. فالأولوية لنصرة المذهب السياسى على توفير لقمة العيش. صحيح قد يبرز هذا الجانب فى حزب أكثر من آخر مثل الطليعة الوفدية، الجناح الاشتراكى فى حزب الوفد التقليدى أو الناصرية أو الإسلام الاشتراكى عند مصطفى السباعى وسيد قطب وتطويره فى "اليسار الإسلامى" فى مصر وتونس. ومع ذلك يظل أثره مبنيا على توجهات الكتلة الحزبية.

لذلك نمت قوة الفقراء وبدأت فى الانفجار بعد أن خذلهم الحزب الحاكم ولم تستطيع قوى المعارضة نيل حقوقهم. والثورة ضد الجوع أبلغ من أى نظرية أو أيديولوجية فى الجوع. وكما قال جان بول سارتر: إن كل النظريات والقصائد

والمقالات عن الجوع لن تمنع طفلا من أن يموت جوعا. إنما هى قطعة خبز فالصراع من أجل البقاء أكبر دافع على التحرك من الانتساب الأيديولوجى أو الولاء المذهبى. الفقر والضنك والبؤس والعوز والمرض والعرى والجهل والبطالة والمجارى الطافحة والمياه غير الصالحة للشرب، والمواصلات المستحيلة، والتشرد فى الشوارع كل ذلك واقع حسى مشاهد يدفع الناس إلى الصراخ وإلى النزول إلى الشوارع دون ما حاجة إلى مثقف نظرى طليعى أو موظف أيديولوجى فى الحزب. وحركة الجماهير التلقائية ليست فى حاجة إلى لجان التثقيف وأمانة التنظيم فى الحزب.

ويزيد من تحركات الجماهير الظروف الخارجية ومآثر العولمة، واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وانهيار النظم الاشتراكية، وسيادة قوانين السوق، وذيوع قيم الاستهلاك، وشراء الاحتياجات بالأسعار العالمية والمرتبات المحلية، ورفع الدعم التدريجى عن المواد الأولية، وتحويل كل شىء إلى قوانين العرض والطلب فى التعليم والإسكان والعمل، وإتباع وصايا البنك الدولى برفع الدولة أيديها عن الاقتصاد وتركه للقطاع الخاص بما فى ذلك قطاع خدمات التعليم والصحة، والماء والكهرباء والغاز، والإسكان والخبز.

ويزداد الواقع الاجتماعى تأزما، وتتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء، وترتفع نسبة البطالة، ويصعب إيجاد السكن الرخيص. وتنتشر مظاهر البذخ للطبقات العليا ورجال الأعمال فى الأحياء الراقية فى المدن الجديدة أو المصايف والأسماء الأجنبية للقرى المصرية "مارينا"، ستيلا دى مارى"، أو العربية التابعة مثل "الريف الأوروبى" على أرض مصر. وينتشر الاحتكار للمواد الرئيسية مثل مواد البناء. ويتم التلاعب بالأسعار بلا أدنى قانون أو رابط. وتهرب أموال مصر إلى الخارج بما يعادل ضعف دينها العام. وتبلغ ثروات فرد واحد ضعف ديون مصر.

وتوارى العامل السياسى بالرغم من حضوره ومشاهدته بالعيان: عزلة مصر، والتفريط فى أمنها القومى فى الشام شمالا، والسودان جنوبا، والعراق والخليج شرقا، وليبيا والمغرب العربى غربا، وهى جزء من المغرب العربى الكبير. ولم تعد الجماهير تتساءل حول التبعية لأمريكا فى السياسة الخارجية، والصلح والاعتراف والتطبيع مع إسرائيل. وضمر الخيال السياسى وإيجاد أحلاف جديدة فى المنطقة مع إيران وتركيا للوقوف أمام نزعات التجزئة والحصار.

فإذا كانت الأولوية فى حركات التحرر الوطنى للسياسة على الاقتصاد، فإن الأولوية فى خطاب ما بعد الاستعمار وضعف الدولة الوطنية للاقتصاد على السياسة، وللخبز على الحرية.

obeikandl.com

١٨- المفاتيح السحرية

كلما تشتد الأزمات ويصعب حلها، وكلما تزداد الصعاب والعقبات ويعجز المجتمع عن مواجهتها تكثر المفاتيح السحرية كنوع من الهروب إلى الأمام والإيهام بالحل والقدرة على المواجهة. وتكثر الشعارات وتتوالى. فبعد هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧ رُفع شعار "العلم والتكنولوجيا" فقد كانت هزيمة العرب أمام إسرائيل فى العلم والتكنولوجيا لعدم استطاعتهم اتقاء ضربة الطيران الأولى. وبعد انتصار أكتوبر ١٩٧٣ رُفع شعار "العلم والإيمان" فقد تمكن العرب من السيطرة على العلم بفن العبور والمدافع المائية، والزوارق المطاطية وعبور الساتر الترابى، وضربة الطيران الأولى، والجندى فى مواجهة الدبابة. بل وحاربت الملائكة مع العرب وعبرت القناة معهم كما حدث فى غزوة بدر. وبعد أن بدأ التفريط فى النصر العسكرى الذى تحول إلى هزيمة سياسية بالصلح والاعتراف بالعدو الصهيونى فى معاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٨ ومعاهدة السلام فى ١٩٧٩ رُفعت شعارات "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل"، "الحاكمية لله"، "تطبيق الشريعة الإسلامية". وتوالت الشعارات الأخرى من العلمانيين مثل "الليبرالية هى الحل" دفاعا عن الحرية السياسية، "الديموقراطية هى الحل" دفاعا عن تداول السلطة، "العلمانية هى الحل" فى مواجهة الإسلاميين، "الخصخصة هى الحل" تخلصا من عيوب القطاع العام لا فرق بين الاقتصاد والتعليم. "العولمة هى الحل" فرأس المال لا وطن له.

(*) الاتحاد: ١ ديسمبر ٢٠٠٧، الدستور: ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٧.

وأخيرا رُفع شعار "مجتمع المعرفة" نظرا لثورة الاتصالات، وتراكم المعارف، وانتشار البرامج وأجهزة الاتصالات الحديثة، "الكومبيوتر" والمحمول والشرائح التى تجعل العالم كله بين يدى الإنسان وعلى أطراف أصابعه، وتحويل العالم الفعلى فى الخارج إلى عالم ضمنى متخيل من خلال الشاشات الضوئية. فالمعلومات قوة. وأصبح من بين إمكانيات الإنسان الحديث "اللاب توب" فكل شىء فيه. العلم فيه والعمل فيه مثل الكتب السماوية فى المجتمعات التقليدية التى حوت كل العلوم والمعارف وكل الإرشادات والتوجيهات وبها خلاص العالم. توهم الإنسان أن العالم بين يديه وقد يكون للعالم قوانينه الخاصة التى تتفاعل معها الإرادات البشرية وحريات الاختيار. فلم تستطع كل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية والأقمار الصناعية والتقاط الصور عن تحركات الجنود على ضفاف القناة ومحطات الإنذار المبكر أن تتنبأ باندلاع حرب السادس من أكتوبر الساعة الثانية إلا خمس دقائق. واستطاع الفيتناميون بأدوات النضال التقليدية، الأنفاق تحت الأرض للجرذان البشرية والاختباء بغصون الأشجار والصواريخ القصيرة المدى مثل سام ٦ إسقاط أكبر الطائرات العسكرية الأمريكية ف ١٦، والانتصار على أعتى الجيوش عدة وعتادا. واستطاعت المقاومة الجزائرية الانتصار على الجيش الفرنسى ومن ورائه حلف شمال الأطلنطى. وتفعل الآن المقاومة ألفلسيطينية والمقاومة العراقية والمقاومة الأفغانية نفس الشىء مع قوات الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين، والأمريكى فى العراق وأفغانستان.

لا يقوم مجتمع المعرفة إلا فى مجتمع مستقر استطاع إشباع حاجاته الرئيسية، الطعام ضد الجوع، والمياه النظيفة للشرب وليس المياه الأسنة الملوثة من البرك والمستنقعات، والإسكان ضد العراء والمخيمات والكهوف، واللباس ضد العرى، والصرف الصحى ضد المجارى الطافحة، ونزع المخلفات الآدمية بالعربات من

الأحياء الفقيرة، والعمل ضد البطالة، والتعليم ضد الجهل، والصحة ضد المرض، ورفع مستوى المعيشة فوق حد الفقر. دون إشباع هذه الحاجات الأساسية للإنسان لا يمكن أن يطالب بمجتمع المعرفة.

وإذا لبت بعض المجتمعات النامية بعض هذه المطالب ولكنها تعيش فى مجتمع القهر والفقر فى الداخل، والتبعية للخارج يكون مطلب الحرية والاستقلال والعدالة سابقا على مطلب مجتمع المعرفة. فالحرية مطلب أول للإنسان. الحرية تعبير عن الوجود فى حين أن المعرفة مطلب ذهنى، والذهن أحد جوانب الوجود. حرية التعبير عن الرأى، واحترام الرأى الآخر، والتعددية السياسية والكرامة الوطنية والاستقلال الوطنى والإحساس بالرضا والشعور بالولاء للأوطان، وبتعبير النظام السياسى عن اختيار المواطنين الحر كل ذلك سابق على مجتمع المعرفة.

وتقوم المعرفة على العلم. ويقوم العلم على إعمال العقل. ويبدأ إعمال العقل بنقد كل مظاهر الجهل والخرافة والسحر والتحرر من سلطة القدماء قبل أن يبدأ بتأسيس العلم. فالعقل النقدى سابق على العقل العلمى. وفى المجتمعات التقليدية مازالت السلطة هى التى تسود، سلطة النقل، وسلطة القدماء، وسلطة التقاليد، وسلطة رجال الدين والسياسة. فكيف يتأسس مجتمع المعرفة فى مجتمع العقل فيه ليس سلطة، ولا يقوم بوظيفة النقد؟ الدعوة إلى إقامة مجتمع للمعرفة فى المجتمعات التقليدية هو استبدال سلطة بسلطة، سلطة الجديد بسلطة القديم، سلطة المحدثين بسلطة القدماء، تقليد بتقليد، وإيمان بإيمان.

لا ينشأ مجتمع المعرفة إلا بعد استنفاذ كل إمكانيات العلم التقليدى عن طريق التدوين والكتب والمعارف المتاحة بأشكالها التقليدية. فالأمى الذى أصبح متعلما يقرأ قبل أن يضغط على الأزرار. ويفك الخط قبل أن يفك الشفرة. وفى

الجامعات الحديثة فى المجتمعات التقليدية ربما يحتاج الطلاب إلى المكتبة المفتوحة التى يأخذ الطالب الكتاب منها بيده من على الرف ويطلع عليها قصدا أو عن غير قصد. فإذا ما تراكمت المعلومات ووصلت إلى حد يصعب السيطرة عليها هنا تبدأ الحاجة إلى تنظيمها وفهرستها وتحويلها إلى ذاكرة يسهل استدعاءها، والتحول من العبارة إلى الكلمة، ومن الكلمة إلى الحرف، ومن الحرف إلى الرمز ومن الرمز إلى الرقم.

وقد انعكس ذلك كله على مناهج التعليم العامى والبحث العلمى فى الجامعات. فإدخال أجهزة المعلومات فى المدارس العامة لا يعنى أن التعليم قد تم تغييره. إذ يحل الجهاز محل الأستاذ، نقلا بنقلا، وسلطة بسلطة. ويلحق الطلاب ببحوثهم قوائم المراجع والمصادر من أجهزة المعلومات لم يقرؤها الطالب أو يطلع عليها بل قرأ ملخصاتها.

إن تحديث المجتمعات لا يأتى عن طريق مظاهر الحداثة، خارج الزمان والمكان، زرع آلات حاسبة وشبكات معلومات متاحة للجميع، استبدال سحر بسحر، ومعجزة بمعجزة، وحديث بقديم. فالعقل لم يتغير، والموقف من مصادر المعلومات لم يتبدل، وهو التلقى والتعليم والتحصيل مع أن العلم هو استنباط المجهول من المعلوم وقراءة ما بين السطور.

المعرفة جزء من نهضة المجتمع الشاملة وليست عنصرا منفردا ومعزولا عنه. هى جزء من كل وليست كلا من أجزاء. المعرفة لها شروط. ما لم تتوافر تكون زرعا بغير نبت، ونبتا فى غير أرض، بالونة ملونة فى الهواء سرعان ما تنفجر. لا يعنى مجتمع المعرفة رفاهية النخبة، وديكور الحداثة، ومظهراً من مظاهر الدولة العصرية، والحياة مازالت بدوية، والرؤية تقليدية. إن تطور المجتمعات، وانتقال المجتمع

التقليدى من القديم إلى الجديد، ومن السلطة إلى التحرر، ومن التقليد إلى الاجتهاد هو الطريق الطويل الطبيعى فى مسار تاريخى ربما يكون مجتمع المعرفة أحد مراحله، وليس بالضرورة آخرها.

obeikandl.com